
روايات مصرية للجيب
د. أحمد خالد توفيق
45
الشمس الأرجوانية
سافاري
Looloo
www.dvd4arab.com

مقدمة

اسمى (علاء عبد العظيم) .. طبيب مصرى شاب يجاهد — كما يقول الغلاف — كى يبقى حيًا ويبقى طبيبًا ..

وحدة (سافارى) هى البطل الحقيقى لهذه القصص ، و(سافارى) مصطلح غربى معناه (صيد الوحوش فى أدغال أفريقيا) وهو محرف عن لفظة (سفرية) العربية ..

لاحظت أن أكثر الأصدقاء يضيفون حرف ألف بين الراء والياء لتتحول الكلمة إلى (سافاراى) .. لا أعرف فى الحقيقة سبب هذا الخطأ ، لكنه خطأ شائع شبيه بتلك الألف الشيطانية التى يكتبها الجميع بعد (واو) ليست (واو جماعة) على غرار (أرجوا الهدوء) . ولو كنت ترغب فى معرفة النطق الغربى للفظة (سافارى) فلتتخيل أنها (صفرى) بفتح الصاد والفاء ..

وحدة (سافارى) التى نتكلم عنها هنا لا تصطاد الوحوش ولكنها تصطاد المرض فى القارة السوداء ، وسط اضطرابات سياسية لا تنتهى وأهال متشككين وبيئة لا ترحم ..

الوحدة دوليـــة لكن بطلكم الفقيــر المعترف بالعجز والتقصير شاب مصرى عـــادى جدًا ، فقط وجد كثيرًا من عوامل الطرد فى وطنه فانطلق يبحث عن فرصة فى القارة السوداء .. انطلق يبحث عن ذاته ..

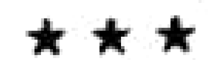
هناك وجد التقدير .. وجد المغامرة .. وجد الحب .. الطبيبة الكندية الرقيقة (برنادت جونز) التى صارت زوجته .. ثم هناك الفيروسات القاتلة والقبائل المعادية والمرتزقة الذين لا يمزحون ، والعلماء المخابيل وسارقو الأعضاء ..

هناك ــ كما قلنا ــ من العســير أن تجمع بين شيئين : أن تظل حيًا وتظل طبيبًا .. لكنك تحاول .. فى كل يوم تحاول ..

هذه المحاولات هى ما أجمعـــه وأقصـــه لكم فى شكل قصص .. وقصصى هى خليــط عجيــب من الطــب والميتافيزيقا والرعب والعواطف والسياسة ! لا أعرف إن كان هناك مجنون آخر قد جرب أن يصب هذا الخليط فى كئوس ويقدمها لكم ، لكنى لم ألق هذا المجنون بعد إلا فى مرآتى ..

تعالوا نبدأ وسنفهم كل شىء ..





-1-

قالت باولا :

ــ « سوف أمنحك النـسيان .. فقـط أغمـض عينيـك ودع الشمس الأرجوانية تتسرب إلى خلاياك .. لا تحاول أن تفهم كيف تغدو الأمور أمورًا .. من حاولوا الفهم عجزوا عن النسيان وعن الفهم .. »

★ ★ ★

الشمس الأرجوانية ..

تحرق العينين فتمنحنا لذة ألا نرى ....

★ ★ ★

وحدة سافارى ليلاً ..

صوت الصمت .. صوت أجهزة التنفس ... صـوت المرقـاب الرتيب ..

وأنا جالس وحيدًا فى قسم العناية الفائقة ، أحاول أن أركز فى كتاب ممل .. من حولى تتناثر الستائر الزرقاء ، وكل ستار يخفى

قصة ما . تتباين القصص لكن نهايتها واحدة فى كل مرة .. العجز التام والأقطاب المثبتة على الصدر وقناع الأكسجين والنظرة التى تتضرع ..

وأنا جالس وحيدًا فى قسم العناية الفائقة ..

الطبيب الإيرانى (فارزاد) معى ، لكنه مصاب بإسهال شديد .. يغادر المكان كل عشر دقائق ، ومع رحيله يطلب منى :

ـ « خذ الحذر .. هه ؟.. آى ! »

فأجلس متوترًا بانتظاره . لماذا يصر الإيرانيون على عدم ارتداء ربطة العنق مع البذلة الكاملة ؟.. يفضلون الصندل كذلك .. يجب أن أسأله عن هذا ..

أنا أكره العناية الفائقة وأكره أجهزة تخطيط القلب الكهربائية .. لا أفهم شيئًا من هذه الرسوم السريالية ، وقد فشلت تمامًا فى أن أقرأ سوى العلامات الخطيرة الكبرى : الاحتشاء .. موت عضلة القلب .. اضطرابات إيقاع القلب .. ما يكفى كى أصرخ ذعرًا وأنادى أحد المختصين. لقد فشلت فشلاً تامًا فى الأمراض الباطنية ، وما أعرفه منها يتناسب مع جراح .. مع الجراحة أنت تفتح وترى بعينك وتغير بيدك ، بينما فى الأمراض الباطنية أنت

ترج الصندوق محاولاً معرفة عدد الكرات بداخله ولونها وأيهــا تالف .. ثم تستعين بعقار تتوقع منه أن يزيل الكرات التالفة ..

لقد تشاجرت اليوم مع برنادت . مشاجرة قوية فى الواقع. لن تهمك التفاصيل ، لكنى آذيتها بحق وكنت فظًا .. مشكلة الشجار معها أنها تجعلنى أكره نفسى فعلاً . لا أعتقد أننى قادر على تأمل وجهى فى المرآة حاليًا .

ثم الاعتذار !!.. هذا أصعب شىء فى العالم ..

هى حامل .. لا يجب أن أضع عليها أعباء أكثر ، لكــن مــن المدهش أن ترى كيف تنشأ مشاجرة من لا شيء.. ثــم يتحــول الأمر إلى : لماذا تدفعنى ؟.. لأنك تجذبنى .. أنت كــاذب ..أنــت وقحة ... كيف تجرؤ على أن تطلــق علــى وقحــة ؟.. لأنــك تتهميننى بالكذب .. إلخ ...

فى النهاية يتعالى سور عملاق لم يكن موجودًا منذ ساعات ..

الممرضة الهندية الرقيقة تظهر من مكان ما ..

تقول بالإنجليزية وبلهجتها التى تضغط علــى حــرف الــراء بطريقة مضحكة :

ــ « دكتور .. أعتقد أنه لابد أن ترى المريض فى سرير 8 »

نهضت معها متوترًا .. نشق طريقنا بين غابة الستائر والجو المعقم الذى أكرهه هنا ..

المريض فى سرير 8 رجل أفريقى فى الستين من عمره . ينظر لنا بعينيه المتسعتين فى رعب والعرق يغمر جبينه. أنظر لشاشة المرقاب فأرى العلامات المخيفة .. هناك احتشاء فى أسفل عضلى القلب .. هذا شىء جديد ..

أوردة عنقه محتقنة تمامًا .. يبدو الأمر كأن هناك خراطيم عملاقة تخرج من رأسه ..

ــ « كم ضغط دمه ؟ »

ــ « سبعين على خمسين .. »

أضع السماعة على صدره فلا أسمع شيئًا .. الصدر هادئ ..

أين ذهب ذلك الإيرانى ؟.. أريد من يكون معى .. لكن الموقف خطير ولا يحتمل الانتظار. ملت على المريض وابتسمت وقلت له :

ــ « ما اسمك ؟ »



نظر لى فى رعب ولم يتكلم. واضح أنــه لا يــتكلم إلا بلغــة البانتويد .. لا يفهم الفرنسية .

قلت للممرضة بسرعة :

ــ « أعطيه حقنة من الفروسيمايد حالاً .. يجب الحصول على إدرار سريع .. أريد محلولاً من النترات لتوسيع شرايينه التاجية .. »

هزت رأسها وانطلقت بنشاط البرغوث تحضر العربــة إياهــا التى تحوى كل شىء ، بينما رحت أحدد لها جرعات كل شىء ...

أفرغتْ المحقن فى ذراعه ثم قامت بتعليق محلــول النتــرات وضبطت سرعة التنقيط ...

وقفت أرمق المشهد فى رضا وأنا أنظر إلى شاشة المرقاب ..

عندما ظهر (فارزاد) وهو يجفف عرقه والماء الذى غــسل به وجهه ، مستعملاً منديلاً عملاقًا يمكن أن يكون ملاءة ... كان يزرر المعطف الأبيض وينظر للمرقاب .. ثم سألنى لاهثًا :

ــ « ماذا هنالك ؟.. ما هذا المحلول ؟ »

شرحت له بسرعة ما قمت به .. لكنه لم يكن يصغى لى .. كــان يرمق الشاشة فى اهتمام ، ثم صرخ وهو يوقف سريان المحلول :

ـــ « يا لك من أحمق !.. إن .... »

وهنا نظرت إلى الشاشة فرأيت ما أثار رعبى .. واضح أن الأمور ليست على ما يرام بتاتًا .. ضغط دم المريض ينخفض بسرعة البرق .. إن المريض مرهق جدًا والعرق صار بركة تغمر الوسادة ، ثم إن عينيه تغربان .

ـــ « أعدى لى الدوبامين .. بسرعة ! »

دوبامين ؟.. المفترض أن هناك عبئًا شديدًا على القلب ، وعليك أن تريح هذا العبء بالمدرات والنترات ، بينما الدوبامين يزيد من العبء ..

قال لى وهو يقوم بتغيير المحلول :

ـــ « هناك احتشاء سفلى فى القلب .. مع فشل دورى عام ... إعطاء الفروسمايد أو أى مدر لهذا المريض معناه الإعدام !.. لابد من إعطائه ما يقبض الأوعية ! »

كان الموقف سيئًا وقد وقفت فى بلاهة أرقب ما يدور ، وشعرت بأننى عاجز عن التدخل أو قول شىء واحد ..



ـ2ـ

عندما يكون هناك غراب بين ويدعونه قائلين : تعـال لتلعـب دور غراب البين قليلاً ، فهذا أسعد أيام حياته ..

باركر البريطانى نائب المدير يجلـس أمـامى علـى مقعـد ، ولا مكتب أمامه .. يضع ساقًا على ساق وقد أراح بعض الأوراق على ركبتيه ، بينما يقف جوار النافذة د. (موريس شـريدان) رئيس العناية الفائقة الجديد . لا يحاول التدخل فى المحادثة لكنه يتابعها باهتمام . وأقف أنا على بعد مترين منه وقد رفعت رأسى فى شموخ ، ودسست يدى فى جيبى المعطف لأبدو غير مهتم ..

قال باركر وهو يقلب الأوراق :

ـ « وهكذا تجد أنك ارتكبت خطأ فنيًا جسيمًا وقد كدنا نفقـد المريض ، لولا براعة د. فارزاد .. »

لم أرد . فقد قلت كل شىء ..

عاد يقول وقد بدا واضحًا أنه مستمتع بالموقف :

ـ « هذه من الأمور البديهية التى يجب أن تعرفهـا إذا أردت أن تتواجد فى العناية الفائقة .. د. (شريدان) يؤكد هذا .. »

شعرت كأنه ذبابة تصر على أن تقف على طبقى .. لن يرحل أبدًا مهما فعلت .. يجب أن أجد علبة بيروسول .. قلت فى اشمئزاز :

ـ « لست مختصًا بالعناية الفائقة .. كان دورى هناك هو أن أساعد .. اساعد .. ولم يكن ضمن خططى أن يذهب الطبيب المختص إلى الحمام مرارًا .. فجأة صرت وحدى ، وكان على أن أتخذ قرارًا سريعًا وقد اتخذته .. »

ـ « وكان خطأ .. »

ـ « ليس ذنبى أن أى طبيب عناية فائقة عملت معه لم يخبرنى بهذه النقطة .. »

ـ « لا تتوقع أن ترى كل شىء أيها الشاب .. هناك جزء يجب أن تعرفه وحدك .. »

قال د. (شريدان) بالفرنسية وفى صبر :

ـ « أنت لم تر حالة ساركوما فى الثدى .. عندما تراها سوف يخطر لك أنها خراج متقيح ولربما خطر لك أن تحاول فتحه بالمبضع .. عندها أنت تقتل المريضة ؛ لأنك تنشر خلايا السرطان

فى كل مكان .. أنا لم أعش هذا الموقف ولم أره ، لكنى قـرأت هذا التحذير فى كل كتب الطب منذ كنت طالبًا .. هناك حد أدنـى يجب أن تعرفه. لا تعط مسكنًا قويًا لمريض التهـاب الزائـدة .. لا تعط المورفين لمريض الفشل التنفسى .. لا تعتـصر طحـال المريض بـداء السراجـة Infectious mononucleosis .. حتى لو لم تر مريض سراجة طيلة حياتك .. »

كنت أشعر بضيق لا حد له .. فلينته هذا الموقف سريعًا. هلم أعدوا كتيبة الإعدام فى الفناء الخلفى .. لا تعـصبوا عينـى .. سوف أقف أمامها فى ثبات ولكن أصـدروا الأمـر بـسرعة .. استعداااد .. صوب ... اطلق النار !.. فقط انتهوا بسرعة ..

المشكلة هنا هى أننى لا أحمل نحوهم أى حقد .. هناك شخص واحد أشعر بكراهية شديدة نحوه هو أنا .. عندما لا تستطيع أن تكره الآخرين فأنت فى مشكلة .. عندما لا تستطيع اتهامهم بأنهم مجموعة حمقى متعصبين يضطهدونك لأنك عربى ، فأنـت فـى مشكلة .. الآن الموقف واضح جدًا .. لقد تصرفت بحماقة وأنـا أعاقب لهذا ..

ونظرت لهما ..

من الواضح أن جريمتى ليست شنعاء .. برغم كل شىء كنت تحت إشراف طبيب مختص ذى خبـرة . إن فداحـة جريمتـك تتناسب مع مستواك العلمى ، وأنا لست فى موضع متقدم علميًا فى الأمراض الباطنية .. ولو حوسبت بدقة لكان هذا فى غرفـة الجراحة لا هنا ..

هذا يسبب لهما مشكلة .. يريدان لى عقوبة أخف من الفـصل وأقسى من مجرد التوبيخ ..

كنت قد ذكرت قصتى كاملة وبأمانة .. لقد تصرفت على قـدر ما أعرفه ، ولو كنا فى عالم آخر فيه وظائف فسيولوجية مختلفة لنلت وسامًا أو ترقية .. كل ما استطيع أن أعد به هو أن أقـرأ كتابًا أو اثنين عن الحالات الحرجة .. هذا هو كل شىء .. والآن ماذا ؟.. هل شكلتم فرقة إطلاق النار ؟

لا . لم يشكلوها بعد ..

قال باركر وهو يطوى أوراقه وينهض :

ــ « لم نستقر بعد على الإجراء المناسب لك يا د. (عظيم).. لكن لا يمكنك حتى ذلك الحين أن تستمر فى أداء عملك .. اعتبر نفسك موقوفًا عن العمل لمدة أسبوع ... »

كان هذا قاسيًا ..

أولاً فيه إهانة قوية .. ثانيا فى الغربة يعتبر العمل هو التسلية الوحيدة الممكنة حتى لا تلقى بنفسك من الشرفة .. معنى هذا هو قتلى ببطء ...

لكن لا سبيل للاعتراض .. لقد أصدر الهر هتلر قراره ولم يعد أمامى سوى التنفيذ.. أنا فى إجازة إجبارية لمدة أسبوع وربمـا أكثر. حالتى المعنوية لا تسمح بذلك أبدًا .. جو البيت ليس على ما يرام وكنت بحاجة للعمل .. الكثير من العمل ...

★ ★ ★

كانت (برنادت) تعقص شعرها أمام المرآة .. نظـرت مـن فوق كتفها إلى حيث جلست على الفراش أطالع كتابًا ، وسألتنى دون أن تلتفت :

ــ « ألن تذهب للعمل ؟ »

قلت فى فتور :

ــ « أوقفونى عن العمل لمدة أسبوع .. »

فهى لا تعرف شيئًا عن قصة العناية الفائقة والتحقيق ، ويبدو أنها شعرت أن السؤال أكثر يحمل شبهة مودة لا سمح الله ، لذا احتفظت بوجهها باردًا بلا تعبير وواصلت تمشيط شعرها ، ثم سألت :

ــ « ألن تتناول الإفطار إذن ؟ »

نحن نتناول الوجبات فى المقصف غالبًا ما عدا تلك الأيام التى أشتهى فيها طعام البيت .. قلت لها وأنا أتمطى :

ــ « نعم .. لست جائعًا .. هناك جبن وخبز فى الثلاجة على كل حال .. لا تقلقى .. »

لم تكن قلقة .. واضح من وجهها تمامًا أنها ليست قلقة ...

وضعت المعطف على كتفيها ثم لفت السماعة الطبية حول عنقها واتجهت للباب .. سألت لمرة أخيرة :

ــ « هل تريد شيئًا ؟ »

ــ « لا .. شكرًا .. »

وانغلق الباب فى وجهى ..



ـ3ـ

عرفت المكان على الفور عندما دنت منــه سـيارة صـديقى (ماكفلاى) .

كلا .. ليست ظاهرة (ديجا فو) .. كنت هنا فعلاً ، ومارست عملاً يشبه ما يقوم به أبطال الأفلام عندما وثبـت لأمنــع تلـك الطبيبة الفرنسية من تمزيق عنق غانية روسية . كان هذا فــى الليل .. الكثير من الصراخ .. البكاء .. العنف ...

كان اسم هذا الملهى / المقهى هو (مولانجا) . الساقى الذى يدير المكان كان يحمل اسم (مولانجا) ، وهو أفريقى ضخم الجثــة له لون الباذنجان الأسود وشعر رمادى مجعد مزرق قليلاً ..

تغيرت حياته كلها من مزارع إلى ساق ، وتحول هو نفسه من (مولانجا) إلى (ألبرت) ، عندما رأى كم يكسب أهل وطنه من الغربيين. لقد حول هذا المكان الواقع على تخوم أنجاوانديرى إلى ناد .. ليس ناديًا فحسب ، فقد أتــاح لــرواده إمكانيــة تعــاطى المخدرات وممارسة الفواحش ..

أدخل على المحل ما يناسب الذوق الغربى ، مع بعض لمسات أفريقية مثل الأقنعة والرماح على الجــدران .. مثــل الموســيقا

الأفريقية المنبعثة من سماعات عملاقة .. مثل الخمـــر المحليـــة القوية التى يمزجها بما يشربه هؤلاء القوم .. أيضًا لم ينس أن يبتاع منضدة بلياردو من مهاجر ألمانى وأوراق لعب ..

تدريجياً صار الزبون اثنين ثم ثلاثة ثم جاء يوم ازدحـــم فيـــه المكان ...

كان المكان فقيرًا قذرًا لكن هذا الجو شديد المحلية كان يروق للغربيين .. وحين تدخل المكان ماعز لم يكن يطردها .. وحـــين يلهو أطفال عراة على الباب لم يكن يمنعهم .

لم تكن الأخلاقيات تضايقه ، فهو لم يحاول أن يفسد أهل وطنه بل كان يفسد الغربيين !. هكذا كان يمارس عمله بروح (وطنيـــة) عجيبة بعض الشىء هى أقرب إلى (التأميم) .. إنه يؤمم ما فى جيوب هؤلاء الأوروبيين لصالحه .. قليلة هى الأعمال الوطنيـــة المربحة لهذا الحد .

هكذا اقتادنى (ماكفلاى) إلى هذا الوكر عندما جاء المساء ، وعندما قلت له إننى أريد أن (أعبث) .. ويبدو أنه فهم العبـــث بشكل مختلف نوعًا ..



سألنى وهو يوقف السيارة :

ـ « هل تنوى أن تسكر ؟ »

قلت فى حزم :

ـ « لا أتعاطى أى نوع من الخمور وأنت تعرف هذا .. »

عاد يسألنى :

ـ « هل أجد لك فتاة روسية مناسبة ، لم تفضل الأفريقيات ؟ »

قلت فى حزم :

ـ « لا أريد أى كلام فارغ من هذا الطراز .. »

نظر لى للحظات ونفث دخان لفافة التبغ بكثافة فى وجهى ، ثم راح يهتز بالضحك ... يهتز حتى راح يسعل :

ـ « إذن سأكون شاكرًا .. كح كح .. إذا شرحت لـــى لمـــاذا جئت هنا ؟.. كح كح .. لو كنت قد جئت للـــصلاة فأنـــا أعـــرف مسجدًا ممتازًا على بعد كيلومترين .. »

قلت وأنا أغادر السيارة :

ـ « أريد جوًا مختلفًا .. لا هو البيت ولا هو (ســـافارى) .. أريد تجربة فريدة .. »

ترجل من السيارة ، وقد قدر الموقف .. لن يطول الوقت قبل أن يقتعنى بتناول كأس .. هكذا قدّر .. والكأس بعدها كـأس .. بعد هذا سأكون على استعداد لأى شىء .. فى الصباح سـألومه كثيرًا ثم أشكره على أنه جعلنى أتعلم العبث ..

هناك صفة دائمة فى شاربى الخمر لاحظتها معهم جميعًـا .. إنهم بحاجة لإقناع شخص آخر ... لهذا يتكلمون عـن (نـديم الشراب) .. عادة شرب الخمر تشبه العدوى فى أنها راغبة فى الانتشار بأية طريقة .

دخلنا المكان ، وكان الوقت مبكرًا فلم يكن ثمة زحام ..

رأيت بعض الأوروبيين يلعبون البلياردو . وبعـضهم يلعـب الورق .. ينظرون لى بوجوه بلا تعبير .. لفافات التبغ تتدلى من الأفواه ..

انتقينا منضدة فجلسنا ..

جاء (ألبرت / مولانجا) والمنشفة تتـدلى مـن خـصره .. كالعادة يمارس كل عمله بالفانلة الداخلية ويعلق صـليبًا كبيـرًا لا علاقة له بالتدين ، كالذى يعلقه أباطرة المخدرات اللاتينيين .. نظر لى بسرعة وأعتقد أنه لم يتذكرنى ..

قال (ماكفلاى) لى باسمًا وبالإنجليزية التى لا يفهمها الساقى على الأرجح :

ــ « لا تحسبن أننى سأطلب لك كوبًا من اللبن .. »

لا .. الساقى يفهم الإنجليزية فعلاً ، وقد قال بلهجة العارفين :

ــ « سأحضر لك بعض اللبن .. أعرف طرازك .. هنا شعارنا هو : عش ودع غيرك يعيش .. هــو لن يسخر منك لأنك تشرب اللبن ويتهمك بأنك طفل يرضع ، وأنت لن تنتقده لأنــه يــشرب الخمر وتتهمه بأنه منحل .. »

هكذا وجدت أمامى كوبًا كبيرًا من اللــبن .. رشــفت رشــفة فوجدته جيدًا ودسمًا .. لابد أن لى شاربًا أبيض مثل بابا نويــل الآن ...

قال (ماكفلاى) وهو يفعم كأسه بسائل أصفر ما :

ــ « هل تجد التجربة فريدة بما يكفى ؟.. كوب لبن كبير فــى حانة .. والمشكلة هى أننى لا أفهم ما تحاول أن تفر منه .. »

ــ « الشعور بالفشل .. الشعور بالحماقة .. الــشعور بأنــك لست كما ظننت .. »

ثم أضفت فى مرارة :

ــ « يسهل أن تفر من مشاكل العمل إلى البيــت والعكــس .. المشكلة هى أننى لا أستطيع الفرار فى أى اتجاه .. أنا مرهق .. أريد أن أريح رأسى وأنام لفترة طويلة بلا أحلام .. »

لم يكن يصغى لى .. كان ينظر إلى ما وراء كتفى ثم صاح فى مرح :

ــ « باولا !!.. »

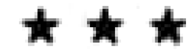
نظرت خلفى فرأيت شمسًا أرجوانية تتحرك .. موشكة على أن تحرقنا ..



ـ4ـ

قالت باولا :

ـ « ســوف أمنحــك النســيان .. فقــط أغمض عينيك ودع الشمس الأرجوانية تتسرب إلى خلاياك .. لا تحاول أن تفهم كيف تغدو الأمور أمورًا .. من حاولوا الفهم عجزوا عن النسيان وعن الفهم .. »



هناك في الشرفة التي تطل على الحديقة الخلفية ، كان الأطفال الكاميرونيون يلعبون .. إنهم أطفال الجيران طبعًا ، ولهذا سمح لهم باللعب ليلاً في هذا الظلام .. هناك طائرة ورقية وصيحات ، وأحدهم يختال بدراجة صغيرة كأنه يركب سيارة رولز رويس .. هناك سحر خاص في الأطفال السود لا أعرف مــا هــو ، لكــن الأطفال البيض يفتقدونه ..

في هذه الظلمة يصعب أن ترى أي شــيء بوضــوح ســوى أشباح زرقاء أو كحلية .. لا يوجد قمر ولا نجوم .. هناك غمامة سوداء تظلل السماء كلها ..

دنت منى باولا .. ووقفت جوارى .. قالــت بلهجتهــا شـبه الإيطالية :

ــ « أنت غارق فى حفرة عميقة .. أراك فى الظلام تتحـسس الجدران بحثًا عن مخرج ، لكنك لا تجد .. تصرخ لكنه كابوس .. لا أحد يسمعك ولو سمعك أحد فلن يعرف ما يفعل .. النتيجة أنه سيتركك ويرحل .. »

قلت وأنا أراقب لعب الأطفال :

ــ « ليس الأمر بهذا التعقيد .. هناك مشكلة عابرة فى حياتى ولسوف أتغلب عليها .. أحلها أو أنساها أو أتجاهلها .. مـررت بهذا الموقف مرارًا .. »

ــ « ليس وأنت فى هذه الحالة .. ليس وأنت فى هذا الحالة .. »

كنت مرهقًا وبحاجة للراحة .. كنت متعبًا من الترحـال ومـن كثرة ما عرفت من وجوه وواجهت من صعاب... كنت هـشًا .. فى هذه اللحظة بالذات جاءت المشكلة .. هذه كانت القشة التـى قصمت ظهر البعير كما تقولون معشر العرب ..

لهذا انهرت .. لهذا تهشمت .. لهذا انقصم ظهرك ..

أنت مفعم بالتساؤلات عن نفسك .. عـن الآخـرين .. عـن قراراتك .. عن ماضيك ومستقبلك .. هل أصبت عنـدما ولـدت مصريًا ؟.. هل أصبت عندما درست الطب ؟.. هل أصبت عنـدما اخترت اسم (علاء) ؟.. هل أصبت عندما اخترت هـذا الوجـه وهذا الأنف ؟.. هل أصبت عندما جئت هنا ؟.. هل أصبت عندما قبلت أن تتكلم معى ؟

★ ★ ★

باولا .. صديقة قديمة لـ (ماكفلاى) ..

من أصل إيطالى ...صحفية ورسامة وأديبـة .. اختـارت أن تظل هنا إلى الأبد ، لكنها تقيم فى العاصمة (ياونـدي). منـذ أعوام لم تأت إلى هذه الحانة البائسة ...

جميلة ؟.. لا .. نحيلة جدًا ولها شعر منكوش مجنون يتطاير فى كل اتجاه ، ولها وجه عظمى فيه لمسة رجولية. قليـل مـن الرجال من ينجذب لقلم رصاص كهذا .. لها أسنان حـادة مـشرشرة وحنجرة بارزة على شكل تفاحة آدم ، كأنها لم تسمع قط أن تفاحـة آدم لا تبرز فى النساء. ثم أنها تلبس ذلك الحذاء الغلـيظ الـذى يذكرك بأحذية الجنود ، وأنا لا أطيق فتاة تلبس هذا الحذاء ..

لكنها كانت مهتمة بأمرى لدرجة تثير الضيق .. أريد أن أترك وشأنى ، لكنها من الطراز الذى يظل يرمق وجهك مدققًا ويقول :

ــ « أنت تدارى غابة كثيفة من الأحزان .. »

إلى آخر هذا الهراء ..

كانت مصرة على استجوابى كأى وكيل نيابة يجيد عمله ، ولم أكن أريد الكلام. طبعًا كما هى العادة انسحب (ماكفلاى) لأنــه وجدنى مملاً جدًا ..

كانت تضغط على أعصابى بقوة ..

وعندما فررت إلى الشرفة كانت خلفى .

قالت لى بطريقة منومة :

ــ « تعال معى وكن كطفل لا يعرف ما تريد أمه .. »

وأمسكت بيدى .. وفى رفق جرتنى وراءها .. لماذا أطيعهــا كأننى حمل وديع ؟

كان الصخب شديدًا بالداخل وقد بدأت السماعات تهدر .. وكان البعض يرقص بلا براعة .. رائحة الخل هذه فى الجو .. هل هو عرق ؟

هناك هذا الممر الضيق الذى يسده ستار من الخرز المـصفف بعناية ..

فى النهاية هناك غرفة صغيرة فى حجم كشك السجائر ، وكانت هناك أريكة من الطراز الذى يصلح لأن يوضع فى كشك سجائر .. على الجدار قطعة من جلد نمر وقناع أفريقى . أشارت لى كـى أجلس ..

لا أريد .. أريد العودة لبيتى .. أنا الآن طفل مـذعور .. لقـد نفذت ما قالته لى وصرت طفلاً . أريد البيت ..

من مكان ما ظهر وجه ألبرت المبلل بالعرق الذى يلمـع فـى الضوء :

ـ « باولا .. هذا الفتى ليس من تلك الطراز .. »

هزت رأسها وهى تنظر لى فى ثبات ، وقالت وهـى تحـرك تفاحة آدم فى عنقها :

ـ « أعـرف .. لكـن أرجـو أن تحتفـظ بتصنيفاتك لنفسك يا ألبرت .. »

شيء غريب .. أشعر بإرهاق شديد وغثيان وقد تخلت ساقاى عنى .. أنا لم أشرب سوى اللبن ، فهل يضعون فيه شيئًا ؟.. مثل ذلك الخشاف فى قصة (عزيز نيسن) الذى قدموه للشيخ التقى ممزوجًا بالفودكا ... النتيجة أن الشيخ تحول إلى بلطجى وأغلق حانات كاملة وكاد يفتك بفتوة المنطقة ..

رأسى يدور بحق ... لا أملك القدرة على الاعتراض أو المقاومة .. ربما أنا أموت ؟.. ما زلت صغيرًا نوعًا ، لكن لابد من أن يموت المرء فى لحظة ما ...

ألبرت قد توارى ، وإن بدا واضحًا أنه غير راض عما يدور هنا ..

مدت باولا يدها فى صدرها وأخرجت كيسًا صغيرًا من السيلوفين .. كيسًا يبدو أنه ممتلئ بأشياء ليست نقودًا على كل حال .. فتحته فى بطء وهى تنظر لى ثم قالت بصوتها المنوم :

ـ « يطلقون عليه فى ياوندى (الشمس الأرجوانية) .. لا أعرف سبب التسمية ، لكنك قد تعرف .. إننى أدعوك لهذه الرحلة .. سوف تكتشف الكثير عن نفسك والآخرين .. »

قلت بصوت مكتوم :

ــ « مخـــ .. مخدر ؟.. »

لكن شفتى لم تنفتحا ... كنت أتكلم للداخل ..

★ ★ ★

الشمس الأرجوانية ..

تحرق العينين فتمنحنا لذة ألا نرى ....

★ ★ ★

فى اللحظات التالية صبت باولا الشمس الأرجوانية فى أعماقى .. وانطلقتُ فى رحلة كونية مجهولة ..

لكن الطبيب ظل متيقظًا بداخلى يراقب .....

رقصة الشيطان

هناك كان البدائيون فى أمريكا الجنوبية ، يرقصون فى الأحراش ثم يهرعون إلى الأشجار ، يقطفون منها تلك الأوراق ويمضغونها . عرفوا أنها تذهب عن المرء متاعبه الثقيلة وتفقده الحس .. فى بيرو تجد آثارًا على الجدران تؤكد أنها كانت مخدرًا معروفًا قبل الجراحة ..

عرف الأوروبيون هذا النبات واستطاعوا أن يفصلوا المادة الفعالة التى تحمل اسم (إرثروكزيلين).. ولفترة طويلة لم يكن لها اسم آخر ..

* * *

باولا كانت تعرف كيف تزيل آلامى ..

ما دسته فى دمى جعلنى أنسى.. ولساعات شعرت بأننى نشط جدًا خفيف جدًا .. لا توجد أعباء فقد ذابت .. لا توجد هموم فقد رحلت ....

الشمس الأرجوانية تسطع فى الأفق ...

إنها تتسرب إلى داخلى فتذيب الخوف والمرض والقلق ..

تقول باولا :

ــ « هل رأيت ؟.. أنت وثقت بى فتلقيت مكافأتك سريعًا .. »

كان قلبى يدق بلا توقف .. أنا لست خائفًا من الغد ولا اليــوم ولا أذكر شيئًا من الماضى . الحاضر؟.. إنه يتحول إلى ماض فى ذات اللحظة التى نقول فيها هذه الكلمات ..

الشمس الأرجوانية ..

لأنه هناك فى فجر التاريخ ، جلست الجبال فى وضع الاحتباء ، وراحت تدق النسيان .. تدقه بلا توقف لتحيله مسحوقًا ناعمًا ... كومة عالية من النسيان راحت ترتفع وترتفع ...

جاءت النسور تحلق ، فرفرفت بأجنحتها وولدت العواصف .. العواصف بعثرت مسحوق النسيان فى كل صوب .. نسيت الجبال أنها حية وأنها قادرة على الحركة ، ونسى البشر أنهم تعساء . فقط لم يبلغ المسحوق الكهوف .. وأنا كنت فى كهف من الكهوف فلم أنشق المسحوق .. لم أنس .. لهذا أنا تعس .. لهذا أنا أتألم ..

وبدأت أعوى فى حزن .. الدمع يسيل على خدى بلا توقف كأنه شلال ، والشلال سوف يغمر الوديان ويغرق الكلأ والغابات ... الوعول ستموت غرقًا ...

أعطينى المزيد حتى لا تموت الوعول ....

حتى لا تموت ...

* * *

وعندما خرجت إلى الحانة رأيت البشر الذين نسوا أنهم تعساء ينظرون لى ..

أسمع فى أذنى طبول البامباس فى غابات الأمازون .. لابد أنه منها ولدت رقصات السامبا والكونجا .. لا .. ليس الكالبسو .. لابد أن الكالبسو جاء من جزيرة ما ..

قلبى يتواثب بلا توقف ..

هكذا وجدت أن فى أعماقى طاقة هائلة لابد من أن أخرجها بأى شكل .. رفعت ذراعى وبدأت أرقص على نغمات الموسيقا. موسيقا خافتة كانت ، لكنى كنت أسمع الطبول عالية جدًا .. طبولاً تأتى من داخلى لا من الخارج ..

بدأت أرقص .. أرقص ... وقد أضفيت على رقصتى حركـات طريفة من رقصنا الشعبى ، لأنى علمت أن أحدهم لم يرها مـن قبل .. كانت هناك مكنسة جوار الجدار فأخذتها وجعلـت منهـا عصا ، ورحت أتبختر كأننى ألعب التحطيب فى عرس ريفى ..

بدأ الجالسون ينهضون ..

حرارتى لسعت الجليد المحيط بهم ، فالتفوا حـولى وراحـوا يصاحبون حركاتى بالتصفيق الموقع ، وسمعت أحدهم يقول :

ــ « يبدو أن مزاجه عال He's high ... »

كانوا يضحكون .. معظمهم وضع لفافة التبغ فى فمه ليصفق بكفيه معًا ..

ومن مكان ما ظهرت باولا تحمل وشاحًا أبـيض ، وراحـت تلتف حولى كالأفعى محاولة أن تطوق خصرى بهذا الوشاح ...

كانت مغمضة العينين تقريبًا وهى تتحرك تلك الحركة الموقعة ، ناقلة حذاءها الضخم على الأرض .. لو داست قدمى لهرستها .. تفاحة آدم ترتفع إلى عنان السماء ثم تهبط إلى أستراليا ..

أرقص ...

أرقص ..

ومن مكان ما وسط الغيوم ووسط غابـات الأمـازون ظهـر (ملكفلاى) .. كان وجهه محتقنًا يوشك الدم على أن يتفجر منه ..

كان يصفق بدوره ، لكنه همس فى أذنى وهو يفعل :

ــ « أنت فى مزاج عال جدًا ... ماذا قدمتَ لك ؟ »

ــ « لا أدرى .. »

ــ « إذن أرى أن نرحل .. »

وجرنى من معصمى نحو الباب بينما أنا أضحك بلا توقف ...

أدار محرك السيارة الهامد وهو يسب ويلعن ، وقال لى :

ــ « أرجو ألا يرانا رجل مرور الآن ... فما أخذناه باد علـى وجهينا .. لا حاجة لأى تحليل .. »

قلت وأنا أواصل التصفيق مع ذلك اللحن الصاخب فى رأسى :

ــ « لا توجد مشكلة فى بعض المرح .. إن العالم يتغيـر ... الوعول لن تموت .. ولكن الجبال تعبت من وضع الاحتباء ... »

قال وهو يندفع فى الظلام :

ــ « ماذا أخذت ؟ »

الشمس الأرجوانية !... الكثير من الشمس الأرجوانيـة !.. إنها فى أعماقى .. إنها تحرقنـى .. سوف تحترق غابـات

الأمازون كلها ولربما سهول التايجا .. ومن الرمـاد والـدخان سأحلق ....

أنا العنقااااء !

★ ★ ★

كانت برنادت نائمة عندما دخلت البيت ...

العشاء ينتظرنى على منضدة المطبخ .. مكرونة وقطعتان من البفتيك .. بينما طبقها فى الحوض ما زال يحمل بقايا الصلصة. يبدو الطعام شهيًا ، لكنى لا أرغب .. لا أطيق أن تنـزل لقمـة واحدة فى بطنى ... سوف أفرغ معدتى فورًا ...

هكذا جلست فى قاعة الجلوس الضيقة ورحت أحاول استعادة اللحن ..

لم أكن أعرف أننى سأعجز عن النوم تمامًا وأن أشعة الفجـر ستتسلل لتجدنى أجوب البيت كذلك النمر القلق الذى كـان فـى حديقة الحيوان فى مصر ... يدور ويدور بلا توقف .....

كنت أشفق عليه ولم أعرف أنه سعيد ..

سعيد جدًا .....

لكنى كنت موقنًا من شىء واحد ... أنا لن أرى باولا هذه مرة أخرى ..

أعـراض غريبـة

عندما عدت فى الليلة التالية ، ضحكت باولا كثيـرًا جـدًا .. كشفت عن أسنانها الشبيهة بالمنـشار.. وارتفعـت تفاحــة آدم كمنطاد نحو السحاب ..

كانت واقفة هناك فى الشرفة ، فلما رأتنى قالت :

ــ « أين صاحبك ؟.. أين ماما ؟ »

لم أرد ..

الحقيقة أننى كنت أدرك يقينًا أننى أتورط .. أخوض أكثر فــى المستنقع ، لكنى شعرت بحاجة شديدة إلى شعور التحــرر مــن الهموم الذى عشته أمس ... بلا عقاقير هذه المرة ...

لكن هل الشمس الأرجوانية عقار ؟.. أنا لم أدخن أو أشم شيئًا على ما أذكر ، كما أن ذراعى خالية من آثار الحقن .. ما أذكره هو الشمس الأرجوانية نفسها تتوهج فتصب نفسها فى دمى ..

هل هذا طريق لإدمان شىء ؟. عقار يتعاطونه بالنظر !..

أنا أعرف العقاقير جيدًا وقرأت عنها كثيرًا .. لا يوجد عقــار اسمه الشمس الأرجوانية . أما عن الإدمان فمن الصعب أن يــتم من مرة واحدة ، وأنا لن أجرب أى شىء هذه المرة

جاء ألبرت فنظر لى نظرة العالم بالأمور ، واتـسعت عينـاه الصفراوان وسط وجهه الأسود .. معظم السود بياض عيـونهم أقرب إلى الصفار ، وهذا قد أربك أكثر من طبيب من قبل . وقال :

ـ « كوب من اللبن الدسم ؟ »

ـ « لو سمحت .. »

ثم نظرت إلى باولا بعد ما ابتعد هذا الرجل وسألتها :

ـ « أنت أعطيتنى عقارًا مخدرًا أمس ؟ »

ـ « لماذا تعتقد ذلك ؟ »

ـ « كل هذا الكلام عن الشمس الأرجوانية ، ثم حالـة عـدم التوازن التى مررت بها .. لم أكن على ما يرام .. »

قالت وهى تحرك تفاحة آدم لأعلى وأسفل :

ـ « قلت لك أن تثق بى .. بصراحة .. لو كنت قد شعرت بأننى أسأت لك فلماذا عدت ؟.. أنت عدت لأنك شعرت بأن الأمور أفضل .. لقد انزاح عن كاهلك عبء ثقيل لوقت محدود .. ولهذا عدت .. »

لم أعلق ..

الحقيقة أننى عدت لأننى أدمنت .. ليس الأمر بكامل إرادتى .. ادمنت ماذا ؟.. أدمنت هذا المكان ..

★ ★ ★

قالت باولا :

ــ « سوف أمنحك النسيان .. فقط اغمض عينيك ودع الشمس الأرجوانية تتسرب إلى خلاياك .. لا تحاول أن تفهم كيف تغدو الأمور أمورًا .. من حاولوا الفهم عجزوا عن النسيان وعن الفهم .. »

★ ★ ★

لقد ذهبت هناك مرة .. مرتين .. ثلاث مرات .. ربما أربع !

هناك هالة من الغموض تحيط بذاكرتى .. فعلاً لا أذكر الكثير .. هناك جو مبهم ... يمكن فقط أن أتذكر أننى ذهبت هناك عدة مرات . وفى كل مرة كنت أقنع نفسى أننى أغير الجو وأن تسليتى بريئة ...

أعتقد أننى فى تلك الفترة اللعينة لم ألتهم من الطعام ما يأكله عصفور يحترم نفسه. لو تذكرت شيئًا فهو فقدان تام للشهية .. كأن تناول الوجبات هم مقيم ..

النتيجة بدأت تظهر سريعًا هى أن السراويل صارت تسقط .. واضطررت لتسخين مسمار لعمل ثقوب إضافية فى حزامى ..

هناك ذلك التصلب فى فكى .. لا أعرف سببه ..

هل أصبت بالكزاز (التيتانوس) دون أن أعرف ؟

كانت برنادت تراقبنى خلســـة .. لم تكن خلافاتنا تسمح بـــأن تنظر لى مباشرة أو تطيل النظر. فقط كانت تراقب من بعيد ..

وفى ذلك اليوم وقفت تراقب طعام العشاء الذى لم أمسه وقالت فى نوع من الشك :

ـ « هل أنت بخير ؟ »

نظرت لها .. ثم هززت رأسى :

ـ « بخير فعلاً .. ولا أروع .. »

ـ « فقدان شهية وفقدان وزن .. هالات سود تحت العينين .. تبدو لى مصابًا بمرض عضال .. لولا ما فى ذلك مـــن مبالغـــة لطلبت منك أن تجرى بعض الفحوص .. »

قلت فى ضيق من هذا الاهتمام :

ـ « لست ممن يكونون فى أســـعد حال وأوفر صحة عنـــدما يتشاجرون مع زوجاتهم .. هذا عيب أصيل فى لو لاحظت هذا .. »

كان ردًا لا بأس به ، ولسبب ما وجدته ظريفًا جدًا فرحت أضحك بلا توقف ....

لكن المنطق يمكن أن ينعكس .. إذن أنا من هؤلاء الذين يفقدون وزنهم ويهزلون ويشحبون عندما يتشاجرون مع زوجاتهم .. منذ متى ؟..

على كل حال كما قلت كان بيننا شيء متوتر ، لذا لم تعلق وغادرت المكان ...

يا لهذا الحكاك ...!.. حكاك شنيع فى ساعدى ومعصمى وبطنى .. هل أصبت بالجرب أخيرًا ؟.. ليس المكان عند (مولانجا) نظيفًا لكن ليس لدرجة الإصابة بالجرب بالتأكيد . الجرب يفضل البطن والمناطق الانثنائية ويؤدى عمله بشكل أفضل ليلاً.. دعك من أنه يترك آثارًا واضحة. بالفعل أريد أن أمزق جلدى . لاحظت هذا منذ يومين .. والمشكلة هى أن الهرش لا يُشبع ولا يبعث تلك النشوة المعروفة .

الاحتمالات هى الجرب ... دودة (أونكوسيركا) اللعينة التى تسبب عمى الأنهار ، لكنها ليست هنا على قدر علمى .. اليرقة المهاجرة فى الجلد ... حساسية من دواء ما .. اضطراب نفسى ... أعتقد أن الاحتمال الأخير هو الأقرب .

وفجأة راح جرس يدق فى مكان ما من ذاكرتى ....

البق ... بق الكوكايين ..

فقط مدمن الكوكايين يعانى هذا الإحساس المزمن ببق يزحف تحت جلده .. فقط مدمن الكوكايين يعانى تسارع ضربات القلــب وفقدان الشهية ... فقط الكوكايين يحدث هذا التنشيط الغريب فى الجهاز العصبى بحيث يرقص المرء ساعات ولا ينام ليلاً ....

لكن هل يمكن أن يتم الأمر بهذه السرعة ؟

بالطبع لا ..

أولاً أنا لم أتعاط الكوكايين أو أى مادة غامضة بــأى طريقــة معروفة من طرق التعاطى ..

إن الكوكايين واحد من المخدرات المنبهة للجهاز العــصبى .. غالبًا ما يوجد على شكل مسحوق أبيض ، وربما يخلط بشوائب من صودا الخبيز والسكر لزيادة وزنه .. إنه النوع غير النقــى الذى يطلقون عليه اسم (كراك) وهم يدخنونه أحيانًــا فيحــدث أثناء اشتعاله صوت (الكراك) هذا ..

معظم من يتعاطون الكوكايين يتعاطونه عن طريــق الــشم.. السينما جعلت هذه الطرق مألوفة للجميــع .. الأنبــوب الــدقيق

والمرآة والموسى ... إلخ .. وهذه الطريقة مشهورة بأنها تحدث ثقبًا فى الحاجز الأنفى .. أى أن الرجل يصير بتجويف أنفى واحد وليس اثنين. لكن هناك من يدعكونه عبر اللثة . هناك من يلفونه فى ورقة رقيقة ويبتلعونه ويسمون هذا (قنبلة الجليد). هنـــاك طريقة التدخين .. وهناك الحقن ...

الغربيون يخلطون الكوكايين بالهيروين فى حقنة واحدة هــى (السبيد بول) وهى خطرة جدًا .. لا يجب أن تكــون كيميائيًــا حيويًا كى تدرك أن هذه الحقنة خطرة ..

أنا لم أتعاط شيئًا من هذا ...

لكن الأعراض ... هذه الأعراض ....

كم من المخدرات يسبب فقدان شهية شديدًا وشعورًا ببق تحت الجلد ؟

* * *

لو كنت قد شعرت بأننى أسأت لك فلماذا عدت ؟.. أنت عدت لأنك شعرت بأن الأمور أفضل ..



* * *

أنا لست مدمناً لأى نوع من المخدرات .. أنا مدمن للجو عند (ألبرت) ... إنه يريحنى .. ولهذا أعود ، برغم أننى لا اطيـق النظر فى وجه باولا الذى يذكرنى بوجه حصان ....

لهذا خرجت من جديد فى المساء ، ولهذا اسـتقللت سـيارة أجرة إلى تلك البقعة المنعزلة خارج (أنجاونديرى) . لو عرف (ماكفلاى) أننى أذهب هناك بهذه الكثرة دون أن أخبره لأصابه الذهول .

★ ★ ★

قالت باولا :

ـ « سوف أمنحك النسـيان .. فقـط أغمـض عينيـك ودع الشمس الأرجوانية تتسرب إلى خلاياك .. لا تحاول أن تفهم كيف تغدو الأمور أموراً .. من حاولوا الفهم عجزوا عن النسيان وعن الفهم .. »

المقاعد المجنونة

غسلت وجهى بالماء البارد مرارًا .. وشربت كوبًا هائل الحجم من القهوة السوداء .. ثم قمت بتمشيط شعرى محاولاً ألا أضايق ذلك الشيطان الجالس هناك متربعًا يرمقنى ويضحك ..

قال لى وهو يتمسك بخصلتين حتى لا يقع :

ـ « لو كنت مكانك لاستعنت ببعض كريم الأساس .. هذه الهالة السوداء تحت عينك غريبة الشكل فعلاً .. »

ـ « ومن أين كريم الأساس ؟ »

ـ « لابد أن عند زوجتك بعضه .. »

قلت فى كبرياء :

ـ « برنادت لا تضع مسلحيق أبدًا .. هذا هو جمالها الطبيعى .. »

ونظرت لنفسى فبدوت أفضل .. الشيطان يتمسك بشعرى محاولاً ألا يقع .. تذكرت الفأر الذى يقود عملية الطهى ويتحكم فى الطباخ من شعره فى فيلم (راتاتويى Ratatouille) فضحكت كثيرًا .. ضحكت حتى صارت ضحكتى رفيعة غريبة كأنها امرأة مائعة تضحك ...

غادرت المسكن قاصدًا مكتب المدير ، حيث يجتمعون لمناقشة قضيتى ... الآن ... الآن ... التاسعة صباحًا ...

السماء غريبة اليوم .. إنها خضراء تمامًا ...

رفعت رأسى ورحت أرقب ما يدور فــى دهــشة ... ســماء خضراء !.. لقد بلغ التلوث درجة غريبة .. سوف تبدأ الضفادع والديدان تنهمر ... غطوا أطباق الحساء يا شباب .. لا نريد أن تمتلئ بالضفادع .. الويل ... الويل .....

كان (بسام) قادمًا فوق سحابة وهو يبعثــر الأزهــار فــوق رءوس الجماهير .. يضع إكليل غار .. لابد أن هانيبال انتــصر على روما . إن هانيبال هو جده كما تعلم .. جد كل تونسى فــى الواقع ..

قال لى وهو ينتفخ وينز :

ـ « إنهم يبحثون عنك .. الساعة الثانية عــشرة !. المــدير غاضب جدًا .. »

قلت له فى حيرة :

ـ « لقد خرجت التاسعة إلا الربع من مسكنى .. مستحيل أن أستغرق ساعتين وربعًا للوصول هنا .. »

ثم رحت أترنم :

ـ « سيدى المنصور يا بابا .. سيدى المنصور يا بابا .. »

وهى أغنية من التراث التونسى تناسب الموقف .. ظل يرمقنى فى حيرة ولا يجد ردًا ..

دخلت إلى مكتب المدير ..

كانت السكرتيرة تنظـر لى فى دهشة .. لم تتسرب السماء الخضراء هنا لحسن الحظ ... يمكننا شرب الحساء ..

أشعر أن حرارتى عالية .. أنا ألتهب ... أنا أحرق ...

أما الأغرب فهو أن (أونوابا) كانت هنا ...

رشيقة جميلة نظيفة كغزال خرج من الدغل ، فماذا جاء بها من جنوب أفريقيا ؟... شىء غريب فعلاً ... والأغرب أنها بدأت ترقص ... ترقص كقبائل الزولو .

لعل المدير أعد لى مفاجأة .. أتمنى أن أرقص معها لكن هذا سيكون غريبًا .. اكتفيت بأن حييتها بهزة رأس ودخلت إلى حيث كان باركر وبارتلييه فى انتظارى .. وكانت معهما مسئولة الأطباء (مارجو) وهى أمريكية ..

قال بارتلييه فى مودة :

ـ « مرحبًا يا علاء .. أرجو أن تجلس .. لقد وصــلنا إلــى قرار بصددك .. »

اتجهت إلى مقعد لأجلس .. لكن ...

منذ متى جنت مقاعد هذه الغرفة ؟.. المقاعد تجن أحيانًا لكن لماذا هذه اللحظة بالذات ؟.. إنها ترتفع وتدور حول نفسها ثــم ترتطم ... هناك مقاعد عدوانية نوعًــا لا تكــف عــن توجيــه الضربات لما حولها . هناك مقاعد خجول تلقت ضربتين فتكومت تبكى عاجزة عن عمل شىء ..

كيف أجلس ؟

قال د. بارتلييه :

ـ « هلا جلست ؟ »

قلت فى ارتباك :

ـ « فقط عندما تتوقف المقاعد عن ...... »

لحسن الحظ لم يسمع أحد ما قلت لأن (مارجو) كانت تنظــر لى متفحصة ثم قالت لــ (باركر) فى شفقة :

– « يبدو أن الموضوع أرهقه نفسيًا .. إنه ناحل جدًا .. »

قال بارتلييه وقد اكتسب طريقة طلقة متفتحة :

– « لقد قررنا ألا نفعل أى شىء على الإطلاق .. أنت عنصر نشط أمين هنا ، ونحن لا نريد أن نعاقبك... لكن لنعتبر هذه سابقة خطرة .. »

كان أحد المقاعد يطير جوار رأسه تمامًا ، لكنه لم يتحرك ولم يبد ملاحظة .. بل أضاف :

– « واضح تمامًا أنك مرهق . لهذا أقترح أن ترتحل إلى ياوندى بعض الأيام .. إنها مدينة لا بأس بها"

قلت وأنا لا أعرف لماذا قلت ذلك :

– « ألن توجه لى اللوم ؟ »

– « على الخطأ المهنى ؟.. نحن نفعل ذلك فعلاً .. »

– « بل على التأخير .. موعدنا كان التاسعة صباحًا .. »

نظر لمن معه وطقطق بلسانه (توت توت) ثم قلب يده وقال :

ــ « واضح فعلاً أنك لست على ما يرام .. لقد وجهنا لك اللوم فعلاً وقلت إنك أصبت بمغص كلوى فى الصباح منعك من الالتزام بالموعد ! »

هل ذكروا هذا ؟.. وهل قلت أنا ذلك ؟ .. إن هذا غريب .. متى تم ذلك ؟

قال الشيطان الذى يتمسك بخصلات شعرى :

ــ « صه .. لا تعلق !.. سوف يعتبرونك مجنونًا لو تكلمت ! »

المشكلة هى هذه المناطق المحذوفة بلا توقف من عــالمى .. كأنه فيلم إباحى خرج من تحت قبضة رقيب صارم ... لقد قطــع أجزاء كثيرة جدًا من الفيلم حتى لم يبق شىء تقريبًا .. هل هــو الصرع ؟.. الصرع يحدث شيئًا مماثلاً ومناطق بيضاء فى الذاكرة ..

قال باركر فى شىء من الهدوء :

ــ « يمكنك العودة للعمل من الآن ... »

شكرتهم ونهضت محاولاً أن أتحاشى المقاعد الطيارة .. فــى الخارج كان هناك حفل كامل قد بدأ وكــان عــشرات الراقــصين يرقصون .. أفيال .. حواة ينفثون النار .. كل هذا فــى غرفــة السكرتيرة ..

ما السبب ؟... يبدو أنه يوم فريد من نوعه ..

اتجهت إلى الباب وأنا أهتز مع موسيقاهم على سبيل المجاملة .. من الوقاحة أن يعزف هؤلاء أمامك وأنت لا تبدى أى اهتمام بهم ...

السماء ما زالت خضراء ..

وقفت أنظر لها متسائلاً عن هذه الظاهرة الغامضة .. نظـرت لها ربع دقيقة أو أقل ..

لما نظرت لساعتى وجدت أنها الثالثة بعد الظهر !

هل يعنى هذا أننى نظرت للسماء ســاعتين ونــصف ســاعة تقريبًا ؟

هناك شىء غريب يدور هنا ...

★ ★ ★

هارى كريشنا .. هارى راما ...

★ ★ ★

لن أذهب ثانية ... لن أذهب ثانية ولن أرى باولا أبدًا ...

كانت الكلمة التى تتردد فى ذهنى طيلة الوقت هى إل إس دى LSD .. عقار الهلوسة .. ليزرجيك أسيد داى إثيل أميد .

هارى كريشنا .. هارى راما ...

العقار الشائع لدى شباب الهيبز .. عندما كانوا يمشون فى الشوارع حفاة صلع الرءوس يرددون مرارًا لا حصر لها : هارى كريشنا .. هارى راما(*) ...

يوجد هذا العقار على شكل مسحوق أو قوالب كقوالب السكر أو قطرات .. فى مصر ظهر على شكل صمغ على طوابع البريد ، وكان يتم تداوله بهذه الطريقة ، واستعماله يتم بلعق ظهر الطابع .. من الطرق الشائعة كذلك أن يبلل به ورق (البلوتر) الخاص بالكمبيوتر ويوزع بهذا الشكل ..

إنه من أسرة مختلفة تمامًا فى عائلة المخدرات الرهيبة .. أسرة عقاقير الهلوسة . عقار صناعى بالكامل ، وهو يخرب التوصيل الكيماوى فى المخ تمامًا ...

يسمون التعاطى بـ (الرحلة) . الهلوسة جزء أصيل من عمل هذا العقار .. هبوط فى ضغط الدم ... تصلب فى عضلة الفك ..

رجفة .. إرهاق .. ارتفاع فى الحرارة .. فقدان الوعى بمرور الوقت تمامًا .. الفلاش باك ورؤية مشاهد كاملة من الماضى أو من تجارب التعاطى السابقة ......

(*) أسماء آلهة هندوسية ... هارى هو الإله فشنو .. ثم كريشنا .. ثم راما ..

- أعتقد أننى تحت تأثير هذا العقار ..

هناك شيء آخر مهم .. من الأعراض الشائعة لهـذا العقـار التحديق الطويل فى قرص الشمس حتى تحترق الشبكية ... إيذاء النفس عنصر ضرورى فى إل إس دى .. لهذا عنـدما يتعاطـاه ثلاثة يتركون واحـدًا منهـم بلا تعـاط .. الفـكرة أنه يكـون (حارس الرحلة) ، ومهمته حماية الاثنين الآخرين من إيـذاء نفسيهما أو الوثب من الشرفة ...

الفنانون فى الخارج يعانون وهمًا مزمنًا أن عقـار ال اس دى مهم لعملية الخلق والإبداع .. أثبتت التجارب أن هذا كلام فارغ . هذا كلام علمى وليس وعظًا تربويًا على فكرة .

الشمس الأرجوانية لا تعمل مثل الكوكايين إذن ..

بل هى تعمل مثل عقار الهلوسة .. ربما كانـت هـى عقـار الهلوسة ذاته ....

هارى كريشنا .. هارى راما ...

باولا ...

هل أنت الشيطان ذاته ؟...

ماذا تريدين منى ؟.. ولماذا أركض أنا نحوك فى كل مرة ؟

أشياء ظريفة جدا

كانوا يقولون فى أمريكا فى تلك الأعوام :

(ال . هـ . أو) قتـل (جى . اف . كى) ، مـن ثم جـاء (ال . بى . جى) ومعه (سى . آى . ايه) و(اف بى آى) .. هكذا هرب الشباب إلى (ال اس دى) ... هذه شفرة سهلة جدًا لو كنت أمريكيًا لأنهم يحفظون تاريخهم جيدًا .. تخيـل أن تكلـم أمريكيًا عن عرابى وشجرة الدر وحادث 4 فبراير .. إلخ .. لـن يفهم أى شىء على الإطلاق .. برغم هذا نحن نلوم أنفسنا عندما لا نعرف أن (ال . هـ . أو) هو (لى هارفى أوزوالد). أحيانًا نظلم أنفسنا أكثر من اللازم .

خلاصة اللغز أن (لى هارفى أوزوالد) قتل (جون كنيـدي) من ثم جاء (لندون بى جونسون) ومعـه وكالـة المخـابرات المركزية ومكتب التحقيقات الفيدرالى ... هرب الشباب الأمريكى إلى عقار (ال اس دى) .

بدت لى هذه المقولة ظريفة جدًا فرحت أضحك بلا توقف حتى سال الدمع من عينى ..

★ ★ ★

برنادت أول من سألنى عن النتيجة وعما قاله هؤلاء السادة ، فقلت :

ــ « سوف يطيرون عنقى فى ميدان عام .. »

وكنت أحاول أن أشد الحزام أكثر ليتمسك بخصرى .. أن تحتفظ بسراويلك وأنت نحيل أمر صعب فعلاً .. مشكلة أخرى هى أن خاتم الزواج ينزلق ..

قالت لى وهى تضع الأطباق على المنضدة :

ــ « أنت غريب الأطوار فعلاً.. سألت سؤالاً بسيطًا وأتوقع إجابة بسيطة .. »

ثم بدأت تصب فى الأطباق حساء الخضر الذى علمتها كى تعده على طريقة أمى .. قلت لها :

ــ « يقول كونفوشيوس : لا توجد إجابات بسيطة لأنه لا توجد أسئلة بسيطة ! »

قالت فى تهكم :

ــ « لم أسمع أن كونفوشيوس قال هذا .. »

ــ « ولا أنا .. لقد قمت بتأليف هذه المقولة حالاً .. »

ثم انفجرت فى الضحك ... بدا لى الأمر طريفًا فعلاً...

أشعر أن رأسى خفيف .. خفيف .... يمكـن أن يحلـق فـى الغرفة. لو قطع أحدهم عنقى لحدثت كارثـة .. سـوف يرتفـع رأسى ويلتصق بالسقف ..

قالت برنادت وهى تتناول ملعقتها الأولى من الحساء :

ـ « جولاتك الليلية الغامضة .. النوم حتى ساعة متأخرة من صباح اليوم التالى .. فقدان الوزن وانعدام الشهية .. لـو كنـا نتحدث عن صبى مراهق لقلنا إنه أدمن مخدرًا ما .. »

مشكلتها أنها ذكية جدًا ... لكن من قال إننى مـدمن ؟.. لـم أسمع من قبل عن مدمن لا يعرف أنه تعاطى أى شىء .....

قلت لها وأنا أبتلع :

ـ « وأنا لست صبيًا مراهقًا لحسن الحـظ . لا أعتقـد أنـك ستتكلمين عن رزمة النقـود التى نقصت منها بعـض الأوراق ، أو تسألينني عن إصرارى على ارتداء أكمام طويلة .. لا توجـد آثار إبر فى ذراعى .. »

ـ « وثيابك التى لم تعد تبدلها وذقنك غير المشذبة .. كنـت حريصًا على أن ترسم شكل لحيتك بدقة باسـتعمال الموسـى .. الآن تبدو لى كفنان بوهيمى .. »

فنان بوهيمى .. أنا ؟

رحت أضحك .. بدا لى هذا مضحكاً ..

كانت ترمقنى فى دهشة .. بينما كان السؤال يتردد فى ذهنى ..

هذه الحالة من الانبساط والشعور بالرضا عن الكون بلا مبرر واضح .. هل نحن نتكلم عن الحشيش أو الماريجوانا ؟

قائمة طويلة من المخدرات تدور فى فلك الحشيش .. نبات الكانبيس اللعين الذى ابتلعه البشر ودخنوه وحقنوه فى دمهم وشربوه مع القهوة فى صورة (المنزول) .. أكثر المخدرات شيوعًا وربما أقدمها ..

إن عمله أقرب لتهبيط الجهاز العصبى على عكس الكوكايين .. وهو كذلك يولد بعض الهلاوس ..

هل ما أعطتنى إياه هو الحشيش ؟ ولكن كيف ؟. كيف لى أن أدخن الحشيش أو أبتلعه من دون أن أتذكر شيئًا ؟

هناك هلاوس فى القصة .. لكن الحشيش فى جرعات كبيرة يسبب الهلاوس فعلاً .. تأثيره أحيانًا يكون عنيفًا وليس مجرد هذا الاستعداد للمزاح الذى يصفونه فى النكات ، على غرار (هع هع هع !) ..

ثمة مشكلة هنا ... الأمر غير متسق .

1 ـ ما نوع المخدرات الذى يجمع معظم خواص المخدرات الأخرى ؟

2 ـ ما نوع المخدرات الذى يظل فى الدم كل هذا الوقت ؟

لو كان الأمر صحيحًا ، لكان مخدر الشمس الأرجوانيــة هــو المخــدر المثالى الذى يحلم به كل تاجر مخدرات فى العالم .. إنه يحقــق كــل شىء تقريبًا ويدخل من يتعاطاه فى شتى الأمزجــة والهلاوس ... إنه يبقى فى الدم طويلاً جدًا ويبدو أن لــه طرقًــا عدة للعمل .....

بدأت أشعر بذلك الهاجس الذى أعرفه ويسبب لى صداعًا فــى مؤخرة الرأس ...

هل الشمس الأرجوانية عقار تجريبى ؟.. مخدر تم تركيبه فى المختبر على غرار ال اس دى ؟.. وعندئذ تكون (باولا) مكلفة بتجربته على عدد من البلهاء ... هل هذا ممكن ؟

ولو كان هذا صحيحًا فكيف أفلت من هذه القبضة الشيطانية ؟

برغــم أننى كنــت غارقًا فى التفــكير فإننى رحــت أضــحك بلا توقــف .. لقــد بدا لى هــذا كله ظريفًا جدًا .. ضحكت حتى آلمتنى بطنى ... إن الحياة مليئــة بالدعابة فعلاً ... من العسير ألا تضحك طيلة الوقت ...

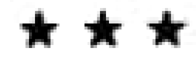
هى هى هى !..

شمس أرجوانية !... اسم مضحك فعلاً ..

فان جوخ العزيز

قالت باولا :

ـ « سوف أمنحك النسيان .. فقط أغمض عينيك ودع الشمس الأرجوانية تتسرب إلى خلاياك .. لا تحاول أن تفهم كيف تغدو الأمور أمورًا .. من حاولوا الفهم عجزوا عن النسيان وعن الفهم .. »



لا أدرى كيف مر بى أول يوم من عودتى للعمل...

للحظات كنت أشعر بأننى أفقت ، وكنت أشرب الكثير من القهوة .. ثم قررت أنها عقار آخر منشط للجهاز العصبى .. لا داعى للمزيد من العبث بهذا المسكين ..

كنت فى قسم الجراحة ، وقد كان على أن أعاون طبيبًا نرويجيًا فى جراحة غدة درقية. لا بأس .. إن جو قسم الجراحة وغرفة العمليات يعيدان لى الحيوية ..

هكذا وقفت أنظر إلى الجرح فى عنق المريضة بينما الجــراح يلاحق الأوعية الصغيرة النازفة . الغدة تظهــر للعيــون كأنهــا أخطبوط شرير كان نائمًا فى الأعماق ..

فجأة شعرت برغبة عارمة فى القىء ..

أريد أن أفرغ معدتى .. ليس هذا هو الوقت ولا المكان .. لكن الرغبة كاسحة ...

أشعر بمحتوى معدتى يتسلق ..

ما السبب ؟.. ليس الاشمئزاز من الأخطبوط فقد رأيته عشرات المرات من قبل. يمكن القول إن منظــر الدم يريحنى كأى جراح أو سفاح يحترم نفسه .. رحت أبتلع ريقى وأشهق أملاً أن يهدأ العصب الحائر ويكف عن الحيــرة أو ينــام قليلاً.. مستحيل أن أفعلها هنا .. مستحيل ...

كانوا يقولون إن فــن الغنـــاء يعلم الناس كيف يكفون عــن السعال .. أعتقد أن الجراحة تعلم الناس كيف يكفون عن القىء ..

طلب منى أن ألتقط طرف الخيط ..

مددت يدى بالمبضع لكنه ــ المبضع ــ راح يرتجف بلا جدوى .. المبضع يتحرك بجنون فى كل مكان ، لكنى لا أستطيع أن ألتقط طرف الخيط .. لم أرفع عينى لكنى سمعت الجراح يقول :

ــ « ما بالك ؟ »

أذناى تحمران من الخجل تحت القناع ..

ــ « هل أنت على ما يرام ؟ »

ــ « لا .. »

وهنا نجحت فى اقتناص الخيط فرفعته .. وتنهدت الصعداء. لكن رجفة عنيفة أصابت يدى من جديد ..

قال لى وهو يكوى بعض الأوعية :

ــ « انصرف .. أنت فى حالة لا تسمح بالاستمرار .. قل لشارل أن يبدأ التعقيم حالاً .. »

هززت رأسى ولم أرد أن أجادل ..

مشيت نحو الباب ، وهنا بدأت ساقاى تلتفان .. مشيتى ليست على ما يرام ..

قال دون أن ينظر لى :

ـ « هل تتعاطى عقارًا ما ؟ »

قلت دون أن أنظر له بدورى :

ـ « بالطبع لا .. »

ـ « إذن حاول أن تظفر ببعض النوم ... صدقنى مكانك ليس هنا .. »

خرجت إلى الحمام الذى نستعمله للتعقيم ، ففككت تعقيمى .. بالطبع لم أخبر شارل بشىء لأننى نسيت كل شىء بمجرد خروجى .. ثم من هو شارل أصلاً ؟؟

أول ما فعلته هو أننى جريت إلى دورة المياه فأفرغت معدتى .. كانت فارغة أصلاً فلم أر إلا عصارة معدية صفراء ، ثم رحت أجاهد وأشهق .. أشهق ... إلى أن تمكنت من أن أدفع شمسا أرجوانية محشورة إلى الخروج. الشمس الأرجوانية سقطت فى مياه المرحاض فتفتت إلى مئات الشموس كلها تشع فى وقت واحد .. لو دخل أحد فى هذه اللحظة لأصابه الرعب ..

عندما خرجت من المرحاض غسلت وجهي بالماء البارد وشعرت بأنني أفضل ..

ثم نظرت لوجهي في المرآة ..

لا شك في هذا .. إن حدقتي ضيقتان تمامًا .. ضيقتان كأنهما رأسا دبوسين ...

* * *

هناك في موضع ما من أفغانستان أو بورما ، أو مكان ما غامض تحرسه ميليشيات قاسية ..

الثمرة المميزة .. ثمرة الخشخاش العجيبة .. بابافر سومنيفيرام .. إنها تبدو جميلة .. لا تبدو بهذا الخطر أبدًا .

فان جوخ رسم أزهار هذه الشجرة لأنها فتنته..

عندما تجرح هذه الثمرة غير الناضجة فهي تنز دمًا .. هذا الدم يشكل ثروة معظم تجار المخدرات في العالم ، لأنه يحتوي المورفين والكودايين ـ كلاهما مانع سعال قوي ـ والنارسين والبابافرين ..

هناك صيدلى عديم الضمير علم المدمنين أن أدويــة الســعال تحتوى كمية لا بأس بها من الكوداايين ، ومن هنــا بــدأ الــداء اللعين .. عندما ترى زجاجات أدوية السعال الفارغة ملقاة فــى الشارع صباحًا ، تذكر أنك ترى إدمان الكوداايين بعينك. المشكلة هى أن تجارة المخدرات تمشى خطوة بخطوة مع علم الأدويــة ، لهذا لا يكفون عن اكتشاف أشياء جديدة ..

الحدقة الضيقة .. حدقة تشبه رأس الدبوس ..

إنها مميزة جدًا للمورفين ..

المورفين ينشط مركز القىء .. لكنه فى الوقت ذاتــه يحــبط الإحساس بالألم والتنفس .. كل من ماتوا بالمورفين ماتوا لأنهم لم يعودوا يتنفسون ...

الرجفة .. المورفين يسبب الرجفة ...

يعرف خبراء المخدرات كيف يغلون المــورفين مــع حمــض الخليك بطريقة معينة للوصول إلى الهيروين ... الهيروين الذى هو أقوى من المورفين مرتين ..

لهذا فالاسم العلمى للهيروين هو (داى اسيتايل مورفين) .. ثنائى خلات المورفين لو كنت تهوى الكيمياء بالعربية. لكن الهيروين لا يعمل على المخ إلا بعد ما يتحول إلى مورفين أولاً ...

الملعقة والمحقن ..

الملعقة المليئة بالمسحوق الأبيض مع قطرات من الماء وقطرات عصير ليمون كحمض ، بينما يسخنونها بعود ثقاب ثم يملئون المحقن ويتسرب السائل الخطير إلى الأوردة .. البعض يأخذ الهيروين تحت الجلد .. المهم أن المدمنين ليسوا أحرص الناس على القواعد الصحية ، وغالبًا ما يتم استعمال نفس المحقن .. لهذا نسمع لفظتى الإدمان والإيدز فى نفس الوقت ونفس الأماكن تقريبًا .. هناك من يفضلون الشم على طريقة الكوكايين ..

إنه عقار خطر وتأثيره على التنفس بالغ. لهذا استخدمه قتلة كثيرون ممن يملكون خبرة طبية.

الشمس الأرجوانية تتصرف مثل المورفين أو الهيروين ....

هذا مؤكد ...



-5-

قد صار مظهرى رائعًا ...

لو أنك رأيتنى لما عرفتنى ..

الغريب أننى كنت أعتقد أن هذه التغيرات تحدث للناس بعد أعوام من التعاطى ، لكن القصة بالنسبة لى لا تتجاوز أسابيع ثلاثة ...

هالات سوداء داكنة تحت عينى .. نظـرة زائغــة مرهقــة .. الشحم فى رقبتى قد ذاب لذا تحول الجلد إلى شىء مجعد يذكرك بالأوكورديون ، والحزام المعقود حول خصرى يوشك علــى أن يقابل طرفه الآخر .. بمعنى أنه لن يكون هناك خصر .. القميص واسع مهترئ .. دعك من الرجفة .. لا يمكن أن أرفع يدى ربع ثانية دون رجفة ..

طبعًا لا أحد يفكر فى التعاطى .. إنهم يفكرون فى أننى مرهق أو مصاب بالسرطان .. أمس قال لى آرثر شلبى وهو يحك شعره الأشيب :

ــ « أقترح أن تجرى فحصًا لدمك واختبار سرعة ترسيب ... إن فى دمك أو عقلك داء عضالاً .. »

ثت ضاحكًا بالفرنسية :

ـ « يا صاحبى .. هو الحب (سى لا مور) .. »

ـ « إذن حاول أن تنقذ نفسك وإلا فلن يبقى لك جسد تحب به .. »

لن أعود إلى هناك .. أعرف هذا ..

باولا حاولت خداعى وأنا عدت كالأبله عدة مرات . لا أعرف شيئًا عن هذا المستحضر الذى جعلتنى أجربه لكنه قوى وشديد الكفاءة .. دعك من أنه يظل فى الدم طويلًا جدًا .. ودعك من أنه يتصرف كمعظم المخدرات .. كأنه مخدر ضم كل مخدرات العالم ..

★ ★ ★

لقد وفيت بوعدى ..

عشت يومين منتظمين وكنت أقوم بعملى فى الصباح ، وعندما يأتى المساء كنت أتناول العشاء برغمى .. وبرغم أننى لا أطيق لقمة واحدة منه .. ثم أطلب من برنادت أن تغلق الباب وتحتفظ بالمفتاح . لن أخرج لأى سبب ، ولو خرجت فلن يحدث هذا دون علمى ...

سألتنى عن السبب .. أعتقد أنها بدأت تـستنتج شـيئا فهـى ليست حمقاء. لكننى قلت لها إننى أريد أن أبقى فى البيت أطـول فترة ممكنة .. لقد اعتدت الخروج ليلاً فى المدة السابقة وهـذا ليس مفيدًا لصحتى ...

حرصت على أن أبتلع الكثير من الأقراص المنومة والمهدئات ..

أنا أعرف أن الإدمان الكيميائى صعب جدًا ، ولابد من عـون خارجى .. لكنى كذلك لن أجعل المستشفى كلها تعرف بقصتى .. سوف أحارب على قدمى وأنتصر ..

فى المصحات يتناولون عقار (ميثادون) وهو مخدر خفيـف يساعد على سحب المخدر الأصلى .. لكن كيف أظفر به ؟

هكذا أمضيت ليلتى الأولى أقرأ .. ووضعت الشطرنج أمـامى مع كتاب للأدوار التاريخية ، ورحت أعيد لعب تلك الأدوار التـى لعبها عباقرة الشطرنج منذ مئات السنين .. طريقة ممتازة حتـى لا تفكر فى شىء آخر ..

لم أعرف مدى تغلغل العقار فى دمى إلا فى اليوم التالى ...

كنت فى المختبر مع (هيلجا) الشمطاء نقوم بإعـداد بعـض العينات لسلسلة تفاعل البوليمريز PCR . وكانت كعادتها لا تكف عن توجيه اللوم لى ..

لهذه المرأة وجه مجعد مليء بالقسوة تدعمه عينان زرقاوان لا ترحمان. أشعر أن هذا هو الوجه القبيح للحضارة الغربيـة .. الوجه الذى كان يلقى بالليبيين من الطائرات ، ويـضع أطفـال الهنود الحمر فى قيزانات ماء يغلى ، وينشر الجدرى لدى قبائل كاملة فى كويبك ....

بدأت أتثاءب بلا توقف .. كأننى فرس نهر ...

يااااو !.. يااااو !

مع كل مرة تثاؤب تدمع عينى ويسيل الدمع من أنفى ... لكنى فى الوقت ذاته لم أكن فى حالة نعاس .. كنت أقرب إلى التـوتر والعصبية.. على قدر علمى لم أر فى حياتى من يتثاءب ويتـوتر فى وقت واحد ..

شعرت بأحشائى تتقلص .. يبدو أن هناك إسهالاً قويـاً فـى الطريق : لكنى سأحاول التماسك بعض الوقت..

كل هذا لم يكن كافيًا .. لقد بدأت أشعر بألم عنيف فى ساقى .. ألم يشبه ذلك الناتج عن (ركوب عضلة على أخرى) كما كنـا نعتقد فى مباريات الكرة ...

ألم عنيف جدًا ...

إن العرق يغمرنى ... يغمرنى بشدة ...

نزعت القفازين المزدوجين ....

كفاى يسيل منهما العرق ، وعلى الفور انطلق الأنبوب الـذى أمسكه كالصاروخ ليرتطم بالجدار ، ولاعجب .. فقد كانت يـدى زلقة تمامًا ...

ــ « هل جننت ؟ »

قالتها لى فى عصبية وواضح أن الدم تناثر على صدر معطفها .. لوث أشياء كثيرة جدًا ...

حاولت تجاهلها لكنها قالت وهى تقف متصلبة كأنهـا جنـرال نازى :

ــ « يجب أن تقدم لى تفسيرًا وأن يكون مقنعًا .. »

كنت أرتجف غيظًا .. أرتجف شاعرًا بأننى أنهيت فتيل الصبر الذى لدى ..

قبل أن أعرف ما أفعله قمت بقذف مجموعة أنابيب الاختبـــار واحدة تلو الأخرى فى الجدار. بقع الدم تتناثر وقد بدا هذا جميلاً لأننى شعرت بأننى أمارس لعبة تصويب ..

لكن ساقى تؤلمنى جدًا .. جدًا ..

أشعر بالكثير من الغبن والظلم فى هذا ..

كانت (هيلجا) ترمقنى بذات الدهشة متصلبة كجنرال نازى ، والعنصرية والمقت فى عينيها .. أعرف أن مشكلتى هى عيناها ..

قلت وأنا أمسك بأنبــوب زجاجى مهشم ، بينما العرق يتساقط من جبينى :

ــ « أنت امرأة نازية .. أحمق من يعتقد أن النازية ماتت بعد الهر هتلر .. لو كان حيًا لكنت تديرين أحد المعتقلات ... ولكنى أعرف مشكلتك .. إنها عيناك ..!.. لو فقــدت هــاتين العينـين الزجاجيتين الوقحتين الباردتين ، لصار شأنك ألطف ...! »



واتجهت نحوها فى تصميم ..

-6-

كان المشهد جميلاً ..

أن ترى هذه المرأة المزعجة المتحدية ، وقد تحولت إلى مجـرد أنثى مذعورة تصرخ ، بينما يطاردها سفاح .. بالتأكيد تقول مـا يعادل (يا خراابى) بالألمانية ..

كانت تركض خارجة من المختبر وكنت أنا وراءهـا .. كنـت أعرج بسبب ألم ساقى مما جعل المشهد كله من فيلم رعب قديم .. مساعد د. فرانكنشتاين يطارد حسناء ليشرحها ..

لم أكن أنوى عمل شىء بالطبع .. يصعب على المرء أن يفعل شيئًا لا يتسق مع شخصيته حتى وهو غائب عن الوعى ، لكنـى كنت أشعر برغبة عارمة فى أن أثير رعبها .. ليس أجمل مـن رؤيتها تصرخ ..

برغم كل شىء ظل الطبيب فى داخلى متيقظًا .. هذه أعراض انسحاب Withdrawal لا شك فيها .. أعراض التوقف عن مخدر ما .. ربما كان هو المورفين ، فإن موضوع الإسهال هذا يـشير للمورفين بقوة ..

بالطبع لم يتأخر رد الفعل كثيرًا ، قبل أن أجد نفسي بين يـــدى ممرضين كاميرونيين قويين ، وقد زود كل منهما برافعة حديدية بدلاً من الذراع ...

من مكان ما ظهر د. جونستون حاملاً محقنًا ...

جثا بجوارى حيث أرغمنى الرجلان على الرقاد على الأرض ، وقال وهو يدس المحقن فى كتفى ؛ لأنه لم يجد أى مكـــان فيـــه أوردة فى وضع المصارعة الحرة هذا :

ــ « هلم يا دكتور .. هذا مجرد ديازيبام .. سوف تهدأ قليلاً .. »

أعتقد أننى هدأت فعلاً ..

لم أنم .. لكنى دخلت حالة من التأمل الساكن كقدارة زيـــت ، حتى خيل لى أننى سأصل إلى سر المادة اللاصقة لأجزاء الكـــون بعد قليل ....

★ ★ ★

أحب هذه الحجرة ..

الحجرة الهادئة النظيفة خافتة الإضاءة ، حيث تأتى موسيقا باخ من مكان ما . غالبًا من سماعة خلف الأريكة ، المكتبة التى

تحتل جدارًا كاملاً .. أشعر أنها غرفة (النفس) فى سـافارى ، وما زلت أذكر جلساتى الطويلة هنا مع برنـادت أيـام فقـدانها البصر ...

جلس د. جونستون أمامى وراح يمـسح كفـى بقطعـة مـن الشاش المبلل بمطهر . آى !.. يدى تحرقنـى .. لقـد اختـرق أنبوب الاختبار المهشم كل خلية فى كفى ..

قال وهو يتخلص من الشاش :

ـ « يبدو أنه لابد من تحليل الدم الذى كان فى هذا الأنبوب ، وكذا دمك .. لقد فعلت كل شيء ممكن لتصاب بالإيدز .. »

قلت فى لا مبالاة :

ـ « لقد تم فحص العينات التى كانت معى فعلاً ... لا يوجـد إيدز .. »

ـ « هذا خبر جميل .. والآن سأكون شاكرًا لو أصـغيت لـى بضع دقائق ... »

ثم إنه استدار ليجلس على مقعد وثير أمامى ، ونزع جـذاءه ليجلس القرفصاء على المقعد .. هكذا يفعل الأطبـاء النفـسيون

اليوم ليوحوا لك بالاسترخاء.. ثم قال لى وهــو يراجــع بعـض الأوراق :

ـ « هناك تقارير كثيرة عنك .. يقولون إنك تتصرف بطريقة غريبة فعلاً .. هناك نوع من عـدم الثبـات .. عـدم الـشعور بالمسئولية .. رجفة قوية .. نوبات هياجية ...ثم ذلك العـرض الرائع مع دكتورة هيلجا ومحاولة انتزاع عينيها. بدأت التقـارير تتراكم بسرعة ، ويمكن القول إن كل شىء بدأ بعد خطـأ عـابر ارتكبته فى العناية الفائقة ولم يؤد لضرر .. السؤال هنا هــو : هل كل هذا ناجم عن التوتر العصبى ، أم أنــك تتعـاطى عقـارًا بصورة شخصية ولم يصفه لك أحد ؟ »

سألته وأنا أحك عينى :

ـ « هل تقصد أن أكون مدمنًا ؟ »

قال وهو يبتسم :

ـ « لا نستعمل هذه الكلمات القاسية .. »

وهذا ما يثير غيظى فى أطباء اليوم .. علمونا أنــه لا يوجـد (سن يأس) بل (سن أياس).. علمونا أنه لا يوجد (عقـم)

ولكن (نقص خصوبة) .. علمونا أنه لا توجد (نبحة صدرية) ولكن (آلام صدر قلبية المصدر).. لـم يعـد هنـاك (جنـون انبساطى اكتئابى) ولكن هناك (اضطراب ثنائى القطبية) ..

عما قريب سوف يطلقون على الموت (فقدان اتحاد) علـى طريقة الخواجة هاينلاين فى (غريب فى أرض غريبة) ..

بينما كلانا يعرف المعنى الحقيقى للكلمـات بـدلاً مـن هـذه الزخارف اللفظية ..

قال د. (جونستون) بلهجة من ينوى بدء محاضرة طويلة :

ـ « الإدمان .. التعود .. الاعتماد .. هناك خطـوط واضـحة بين هذه المصطلحات .. على كل حال لفظة إدمان توشك علـى الانقراض لتحل محلها لفظة (الاعتماد على المستحضر) .. »

★ ★ ★

قال د. جونستون :

الاعتماد هو نوع من الاستعمال المتكرر لعقار مـا ، ويمتـاز بخمس نقاط :

1 ـ رغبة كاسحة فى تعاطى العقار .

2 ـ فقدان تأثيره مع الوقت مما يستدعى من المتعاطى زيـــادة الجرعة .

3 ـ الاعتماد النفسى والجسدى على تأثير العقار .

4 ـ حدوث أعراض انسحاب واضحة عند التوقف عنه .

5 ـ آثار خطرة على الفرد أو المجتمع .

كلما استعمل المرء العقار أكثر قل التأثير ، وهذا يعنى الحاجة لزيادة الجرعـــة . إن من يتعاطـــون الهيروين يضطرون لزيادة الجرعة دون حسابات ، خاصة مع عدم تماثل العينات فى السوق .. هكذا قد يأخذون جرعة عالية جدًا دون علمهم ويموتون .. هـــذا هو الـــ OD أو (الجرعة الزائدة) .

يختلف التعود عن الاعتماد .. التعود عملية نفسية ولا حاجـــة لزيادة الجرعة ولا تحدث أعراض الانسحاب .. الماريجوانا والحشيش نموذج للتعود لأنه لا تحدث لمن يتوقف عن الحشيش أعـــراض جسدية مهمة ... الاعتماد هو حاجة جسدية كاسحة للعقار تؤدى للمرض ..

على كل حال يبدأ كل مدمن تعاطى العقار الذى يناسب حالتـه .. لقد أدمن فرويد نفسه الكوكايين ليعالج اكتئابه . ومـن يمـرون بكارثة قد يدمنون الكحول .. وهكذا ..

. فجأة أوقفت هذا الشرح الرائع وسألته بعصبية :

ــ « هل تعرف عقارًا اسمه الشمس الأرجوانية ؟ »

نظر لى فى دهشة ثم قال :

ــ « لا .. لكن ما أكثر أسماء الشوارع للعقاقير .. للماريجوانا عشرة أسماء على الأقل وكذلك الكوكايين .. لكن لماذا تسأل ؟ »

ــ « لا شىء .. رواية قرأتها قديمًا .. تكرم بمواصلة الشرح .. »

حكى لى د. جونستون الكثير من التفاصيل عن (دائرة المكافـأة) و(النظام الطرفى) والدوبامين .. طبعًا كلامى مفعم بالتفاصـيل أصلاً فلن أزيد الأمور تعقيدًا .. لقد فهم العلم الكثير عن الإدمان فعلاً .. يبدو أن فئران وأرانب كثيرة قد صارت مدمنة وهـدمت حياتها للأبد من أجل فهم هذا كله . لا داعى لأن أقول إننى لا أفهـم معظم هذا الكلام أنا نفسى .. هذا من أعقد وأعلى مستويات علم العقاقير وفسيولوجيا الجهاز العصبى والهندسة الجزيئية معًا .

هناك مدرستان لعلاج الإدمان .. المدرسة الأمريكية التى تمنع العقاقير تمامًا ، والمدرسة الأوروبية التى تسمح ببعض التعاطى بشروط .. أى لن تكون هناك جرعات زائدة .. لن تكون هناك محاقن مشتركة ملوثة بالدم .. سيتم كل شىء فى النور.. هناك برنامج الـ 12 خطوة للإقلاع وهو برنامج شهير جدًا ..

من الغريب أن الوثائق تدل على نجاح البرنامج الأوروبى أكثر !

★ ★ ★

استمرت الجلسة ساعة ..

عندما أنهى د. جونستون كلامه نظر لى باسمًا وانتظر أن أتكلم ..

قلت له فى تهذيب وأنا أنهض وأحكم ربط الضمادة على يدى النازفة :

ــ « شكرًا لهذا الشرح الممتاز .. لكنه كله ينبع من افتراض أننى أتعاطى مخدرًا .. فماذا لو قلت لك إننى لا أفعل ؟ »



–7–

لقد حددوا موعدًا آخر للتحقيق معى ..

سوف تقول هيلجا إننى حاولت جاهدًا انتزاع عينيها بأنبوب اختبار .. ولسوف يكون هناك تحقيق طويل. هذه المرة أنا أعرف أنها النهاية . لن يتسامحوا معى مرتين فى شهر واحد ، بعد ما صرت أشكل خطرًا بالفعل ..

من حسن الحظ أنهم لم يحبسونى أو يحددوا إقامتى .. على الأقل هم كرماء فى هذا الصدد .

الأسوأ حالاً كان (برنادت) ..

كانت تبكى وفى حالة سيئة جدًا .. يبدو أنها أحوج الناس لجرعة من أى مهدئ للجهاز العصبى . كانت ترتجف ..

المشكلة هى أن بطنها بدأ يعلو .. فى الحقيقة هذا يضايق تنفسها جدًا . ليس هذا أفضل وقت لتحويل حياتها إلى جحيم ..

– « علاء ... لابد أن أفهم .. أنت تفلت من يدى وحياتنا تنهار بالكامل .. »

لا أنكر هذا .. لا أنكر هذا ..

– « علاء .. لو لم تكن تتعاطى عقارًا ما فأنا لا أفقه شيئًا .. »

أنت ذكية يا فتاة ..

– « بدأ كل شيء منذ تشاجرنا وصرت تخرج ليلاً.. لا أعرف إلى أين تذهب لكنى أرجح أنه أحد الملاهى الليلية .. هناك تعاطى مخدرات أو ما هو أسوأ .. »

أنت دقيقة يا عزيزتى ... لكنك جربت ظلمى من قبل .. ألم تتعلمى شيئًا أو شيئين ؟.. أنا برىء دائمًا .. مظلوم دائمًا .. فى كندا حسبت أننى ذلك الشرقى الأبله الذى رأى الحضارة الكندية فجن وراح لعابه يسيل ، ثم تبين أن هذا أبوك العزيز ..

– « يجب أن تتكلم ... أنا أفقدك ببطء ، وعلى الأرجح سيعودون بجثتك ذات ليلة بعد جرعة زائدة .. »

ومن قال إننى سأذهب هناك ثانية ؟

قلت لها وأنا أنهض :

– « برنادت .. فقط ثقى بى .. »

– « هذا هو المطلب الوحيد الذى لا أقدر على القيام به .. »

فكرت لحظة ثم قلت لها :

ــ « سوف أضعك على بداية الخط .. سأحكى لك كيف بدأ كل شىء .. »

★ ★ ★

عندما تأخذ زوجتك عند (ألبرت) فليكن ذلك ظهرًا .. عندما يكون الأطفال فى كل مكان والنسوة جالسـات علـى الـدرجات يطعمن البط أو الماعز .. ولربما تجد بقرة داخل البار ..

لا يوجد سكارى ولا أوغاد ولا مدمنون ولا زناة فى هذا الوقت .. إنهم ينامون قليلاً كى يخرجوا من جحورهم ليلاً ..

برنادت كانت تعرف المكان طبعًا من مغامرتى القديمة مع داء الإيدز .. لو كنت نسيت أو أضعت الكتيب ؛ فلا بأس لكن أعفنـى من سرد القصة مرة أخرى ..

كانت هناك امرأة أفريقية تضع عمامة عالية جدًا أو منـشفة على رأسها ، وتعد طعامًا شهى الرائحة على الموقد ، فـسألتها عن (ألبرت) أو (مولانجا) ..

قالت إنه ينعم ببعض الراحة الآن .. إنه وطواط لا ينام ليلاً ...

قلت لها وأنا أعد بعض أوراق العملة (فرانكات CFA) :

ــ « فقط كنت سأدفع له لو ... »

رسالة واضحة جدًا ... اتسعت عيناها ، ثم تركت الموقد ودخلت إلى حجرة داخلية ...

بعد لحظة ظهر (مولانجا) الوغد .. دائمًا هو هو .. الفانلة الداخلية والكرش والسروال القصير .. يقضى حياته كلها بهذا اليونيفورم حتى لو أعدموه .. لكنه كان يعلق منشفة متسخة على كتفه وكان عكر المزاج . أعتقد أنه سب المرأة قليلاً .

هز رأسه محييًا وقد تذكرنى .

قلت له وأنا أضع أوراق العملة أمامه :

ــ « أين باولا .. الفنانة الإيطالية .. هل ما زالت تأتى ؟ »

هنا حدث ألعن مخاوفى ..

لقد ضيق عينه وراح يحاول التذكر ... باولا ؟.. لا أذكر أحدًا بهذا الاسم .. تذكر قليلاً ... إنها تأتى هنا كل ليلة .. جاءت من ياوندى .. نحيلة .. شعر منكوش .. أسنان بارزة .. يبدو أنها توزع مخدرات ..

قال فى ضيق وهو يجفف عرقه بالمنشفة :

ـ « ليس لدى من يوزع مخدرات .. هناك من يتعاطى علـى مسئوليته الخاصة ، لكن لا أحد يوزع .. دعك من أن فتاة وحيدة لا تأتى عندى ليلاً ما لم يكن معها .. احم ... »

فهمت ...

باولا يا أخى .. تذكر ... مستحيل ألا تعرفها ..

كلامك معها يؤكد أنك تعرفها تمامًا .. لا تحسبن أننى سـأقبل هذه الإجابة وأرحل. باولا ملأت دمى بشىء لعين اسمه الشمس الأرجوانية ، وأنا أريد أن أعرف ما هو لأتخلص منه ..

ونظرت لبرنادت .. كانت تنظر لى بمزيج من الشك والـشفقة والحيرة والحزن ..

قلت لها :

ـ « برنادت .. أنت تعرفين أننى صادق .. »

قالت وهى تنظر لألبرت :

ـ « هو يبدو صادقًا كذلك !! »

8

هذه المرة هى مشكلتى فعلاً ..

لقد مررت على العنابر وقسم الجراحة ظهرًا فتزودت بما أردت ، وعندما جاء العصر كنت قد غادرت الوحدة. استوقفت سيارة أجرة .. سيارات الأجرة هنا من الطراز الذى نطلق عليه (نصف نقل) ، حيث تركب فى الصندوق الخلفى متظاهرًا بأنك شديد الرقى ..

وبعد قليل كنت أترجل أمام بار أو مقهى (مولانجا) ، وأنا أحمل الكيس الثقيل الذى جئت به ..

لم يكن المشهد قد اختلف كثيرًا عن لحظة مجيئى مع برنادت. والمرأة الأفريقية كانت تعد الطعام وتنظر لى فى دهشة ...

قلت لها من جديد :

ـ « أين ألبرت ؟ »

هزت رأسها فى عدم فهم ، ثم اتجهت إلى الداخل .. بعد قليل عادت ومعها الرجل والمنشفة على كتفه . رائحة النوم تملأ المكان ..

قال فى ضيق كأنه رأى الشيطان :

ــ « اسمع .. يمكنك توجيه أسئلتك ليلاً .. أنت تفسد يــومى بالكامل .. هذه فرصتى الوحيدة للنوم .. »

قلت له :

ــ « أريد مكانًا منفردًا .. يجب أن نتكلم .. »

واتجهت دون كلمة أخرى إلى الممر الضيق الذى يسده ستار من الخرز المصفف بعناية ..

غرفة صغيرة فى حجم كشك السجائر ، وأريكة من الطراز الذى يصلح لأن يوضع فى كشك سجائر .. على الجدار قطعة من جلد نمر وقناع أفريقى . هذا هو المكان الذى كنت ألقى بـ:لا فيه ..

جاء من خلفى وهو يترنح ...

وقف على الباب وراح يجفف عرقه بالمنشفة .. هناك رجــال يعتبرون أن المنشفة أداة لتجفيف العرق لا الماء.. كان ينتظر ما يعرف أننى سأقوله .. وقد قلته بعد ما أغلقت الباب ..

ــ « أريد أن أجد الفتاة الإيطالية .. »

عاد يقول فى ملل وهو ينكش شعره الأزرق المجعد بأنامله :

ــ « أنت لا تصغى جيدًا .. قلت لك إنه لا توجد فتاة إيطالية ، ولو كانت هناك فأنا لا أعرفها ولم أرها .. »

قلت للمرة الألف :

ــ « أنت نصحتها أن الفتى ليس من هذا الطراز .. وهى قالت لك أن تحتفظ بتصنيفاتك لنفسك .. هى صبت فى دمى مخدرًا قويًا أفقدنى صوابى .. المشكلة هى أننى لا أعرف اسم هذا المخدر ولا تركيبه. على قدر علمى لا يشفى أحد من مخدر لا يعرف ما هو ولا كيف تعاطاه .. »

ــ « هل فهمت ؟.. أنت لا تذكر كيف تعاطيته .. لم أر فى حياتى مدمنًا لا يذكر طريقة تعاطى عقار .. الأمر كله هذيان يا صديقى .. »

كان يتكلم بثقة جعلتنى أتمنى تحطيم رأسه ..

وهذا ما فعلته ...

من الكيس أخرجت الثقل الحديدى الذى أضعه على الصفحات فى كتبى ، وهويت به على رأسه .. لم يفقد وعيه فهو قوى

التحمل ، لكنه اضطرب كثيرًا ... كان يشهق ألمًا وهو لايفهم .. كنت فى اللحظة التالية قد قلبته على الأريكة وأحكمت ربط الحبل الغليظ على معصميه .. لقد أعددت كــل شــىء مــسبقًا بحيــث لا أستغرق وقتًا ...

عندما بدأ يفهم ما يدور كان سن المحقن شبه مغــروس فــى جلد عنقه ..

اتبعت هذه التقنية من قبل لكنها كانت تهويشًا .. اليــوم هــى حقيقية ..

نظر لى بعينين متسائلتين ، فقلت وأنا ألهث :

ــ « أعتقد أنك تفهم ما هنالك .. هذا المحقن ملىء بدم مــريض إيدز .. أخذته من المستشفى من أجلك خصيصًا .. لو لم تجب عــن أسئلتى بصدق وحماس فسوف أفرغ محتواه فى وريد عنقك .. »

فتح فمه ليتكلم فقلت بسرعة :

ــ « طبعًا الصــراخ والاستغاثة لهمــا ذات معنــى الــرفض عندى .. لم أستطع أن أسد فمــك بشريط لاصــق لأننــى أريــد سماع ما ستقول .. »

أعتقد أن ملامحى المرهقة وعينى المجنونتين نجحتا فى إقناعه أننى جاد ..

قلت له :

ـ « الآن لا أريد مزاحًا أو لعبًا بالكلام .. أين الفتاة الإيطالية ؟ »

قال شيئًا بصوت خافت ، فعدت أطلب منه أن يكرر .. كانت ضحكة ساخرة كريهة على شفتيه وهو يقول :

ـ « أقول لك إنك لا يمكن أن تصيبنى بالإيدز .. أنا مصاب به فعلاً وأعالج فى باوندى !... »

ثم انفجر يضحك ضحكًا هستيريًا عرفت منه أنه لا يكذب !

* * *

قررت أن ألجأ إلى الطرق القديمة الفعالة ، فأخرجت الشريط اللاصق من جيبى وقمت بتثبيته على شفتيه .. ما دامت سبل الحرب البيولوجية لا تصلح هنا فلنستعمل أساليب البلطجية ..

قلت له وأنا أجلس على قدميه لمنعه من الركل ، وأدس يدى فى القفاز البلاستيكى :

ـ « طبعًا أنت تدرك من القصة أننى مدمن وضائع تمامًـــا .. لقد أغلقت كل السبل أمامى وليس لدى ما أخسره ... »

م م م ف ف !

ـ « عندما تجد أن لديك ما تقوله أغلــق عينــك اليمنـــى .. اليمنى .. هذه .. وإلا فلتعتبر أنك منته .. »

م م م ف ف !

ثم أخرجت من الحقيبة تلك اللفافة .. منـــشفة صـــفراء بهـــا مجموعة أدوات جراحية مخيفة الشكل .. مجرد مشهد المنـــشفة جعله يتوتر ..

قلت وأنا أخرج المبضع والجفت :

ـ « أنا جراح ممتاز .. لكن الجراحة التى لم أمارسها طيلـــة حياتى كانت استئصال المثانة .. كنت أتوق للتجربة لكن أحدًا لم يعطنى الفرصة .. هل من عين يمنى ؟.. لا ؟.. شكرًا لك .. ســـوف أبدأ وأنذرك أن هذا يؤلم فعلاً.. لكنى سأكسب خبرة هائلة .. هذه الأدوات معقمة طبعًا لكن لا أضمن أن تظل كذلك ، خاصة أننى أنا نفسى غير معقم .. هذه ألعن ظروف تجرى فيها جراحـــة كمـــا

تعلم.. دعك من أنك تقاوم .. هكذا يمكن أن أمزق الأورطى نفسه ولا لوم على .. »

وبدأت أرفع فانلته الداخلية وهو يقاوم بعنف ... كأنى أركب ثورًا فى مباراة (روديو) فى ألاباما ، لكننى لست ضعيفًا جدًا .. يمكن أن أبقى حيث أنا ...

صبرًا .. أنت تعرفنى .. يمكن أن أكون مرعبًا لكنى لن أفعل هذا .. الفكرة هى أننى أضعه تحت أقسى ضغط عصبى ممكن ..

وبالفعل نظرت لوجهه فلم يغمض عينه .. كان يبكى ويرتجف لا أكثر ..

كل هذا الضغط وكل هذا التهديد وليس لديه ما يقوله.. ليس لديه سوى البكاء المثير للشفقة ..

النتيجة المنطقية الوحيدة هى أنه صادق !



ـ9ـ

دون كلمة أخرى انتزعت الشريط اللاصق من على شفتيه ، ثم قطعت الحبل حول معصميه بالمبضع ..

نهضت فى الوقت المناسب كى أتجنب ركلة ثور هائلـة كـاد يسددها لى ، ثم حملت الكيس ووضعت أدواتى فيه ، وغـادرت المكان ..

لابد أنه ما زال يتكلم حتى اليوم عن ألعن مجنون قابلـه فـى حياته .. أنا ..

كنت أعرف أنه لن يتصل بالشرطة أو حتى يحـاول الانتقـام ذاتيًا .. مثل هذا الرجل لا يهمّه إلا أن يستمر تدفق الدمل والعملات فى دُرجه. ما دام العمل مستمرًا فليـذهب الجميـع لجحـيم .. لا يريد أى شىء يعطله أو يفسد سمعة المكان السيئة أصلاً ..

كان يعرف كذلك أنه تخلص منى للأبد .. هذا واضح ...

أمثال هذا الرجل يرون الأرواح بدقة ، ولابد أنه رأى روحـى فى النهاية ، وعرف أننى لست من الطراز الذى يستأصل مثانـة رجل حى مقيد ... ليس لدرجة أن يجازف طبعًا ....

أنا بدورى كنت قد قررت.. الرجل الذى لا يعترف بسر بينما مجنون يوشك على استئصال مثانته بلا تخدير ولا تعقيم ، هو رجل لا يملك هذا السر أصلاً ...

* * *

هى مشكلة عويصة فعلاً ...

لقد قابلت فى حياتى أشخاصًا كثيرين لم يكن لهم وجود ، لكن قصة هذه المرة لا تنتمى لهذا الطراز .. كل شىء حقيقى وملموس جدًا ..

لا يعرف شيئًا عن باولا .. وباولا لم تعد تظهر ..

لن أعرف أبدا ما فعلته بى ولا ماذا صبته فى دمى ولا كيف..

لكن ربما كانت المشكلة قابلة للحل الذاتى .. السم يغادر دمى وأعراض الانسحاب تقل .. بعد أيام سأعود شخصًا طبيعيًا وتنتهى القصة عند هذا الحد..

صحيح أن الانتقام شىء شهى ، وأنا راغب فى تذوقه لكن ما دام مستحيلاً فعلى أن أنساه ..

قالت باولا :

ــ « سوف أمنحك النسيان .. فقط أغمض عينيك ودع الشمس الأرجوانية تتسرب إلى خلاياك .. لا تحاول أن تفهم كيف تغدو الأمور أمورًا .. من حاولوا الفهم عجزوا عن النسيان وعن الفهم .. »

* * *

بدأت آكل جيدًا ..

الحقيقة أن برنادت نبيلة جدًا .. لقد تمت تربيتها جيدًا فعلاً . مهما كان الخلاف معها فهى لا تقصر فى رعايتى .. هى لا تضرب تحت الحزام أبدًا .. وقد تكفلت بأن تطعمنى جيدًا ..

فيتامين سى عنصر مهم فعلاً. يبدو أنها قرأت طرق انتزاع السم الطبيعية كما يطبقونها فى إسكندنافيا ، وبدأت معى خطة تعتمد على الفيتامين سى والملينات وزيت الزيتون ..

بدأت استرجع وزنى نوعًا وبدأت رحلة ثقوب الحزام بالعكس ..

كل المشاكل يمكن أن تحل ما لم أعد لألبرت .. وأنا قد قطعت علاقتى بهذا المكان للأبد .. لو ظهرت هناك لفتكوا بى ...

المشكلة الأخرى التى أنساها هى أن هناك تحقيقًا قريبًا .. وهذا التحقيق لن يمر على خير على الأرجح ....

سوف تكون هناك تهم ممتازة تلائم الجميع .. تهم بالصلصة وتهم بالمايونيز وتهم بالصلصة المكسيكية ..

كنت أمشى فى الوحدة شارد الذهن أفكر فى الجحيم الذى ينتظرنى قريبًا ..

عندما وجدت ماكفلاى أمامى ..!

كيف نسيت ماكفلاى ؟

هرعت نحوه فى لهفة فتراجع بضع خطوات وهتف :

ـ « ماذا دهاك ؟.. منذ ذلك اليوم عند (مولانجا) .. لم أرك ثانية ، لكن يقولون إنك تتصرف بطريقة غريبة .. »

وضعت يدى على كتفه فتشنج قليلاً كأنه لا يريد ، وقلت :

ـ « الأمر سهل .. صديقتك تلك قد أغرقتنى فى مخدر ما .. مخدر لا أعرف عنه سوى أنه الشمس الأرجوانية .. مخدر طويل المفعول ولا يزول من الدم أبدًا .. »

قال وهو يمشى معى :

ــ « من ؟.. صديقتى من ؟ »

ــ « الإيطالية .. باولا .. »

توقف ونظر فى وجهى وقال فى ثبات :

ــ « لحظة .. أنا لا أعرف ولم أعرف أية أنثى إيطالية اسمها باولا .. »

إذن نحن نلعب لعبة (الفتاة التى لم تكن) ... لو كنت تحسب أننى قد جننت إلى حد رؤية فتيات كاملات فأنت مخطئ .. هــذه أشياء مثيرة فى القصص لكن ليس فى عالم الواقع ..

ــ « عزيزى .. أرجو أن تكف عن هذه اللعبــة .. أنــا فــى الجحيم .. فلا تحاول أن تبقينى هناك . أنت من قدمنا لــبعض .. هذه الفتاة دخلت عالمى لأنها رأتك معى .. »

عاد يقول فى حرارة :

ــ « لا توجد فتاة بهذا الاسم .. أنت تتخيل .. »

ثم ضحك وجفف عرقه وقال :

ـ « لو لاحظت رنين الاسم لوجدته إيطاليًا جدًا جدًا .. الاسم الذى يمكن لأى منا أن يختلقه لو اختلق فتاة إيطاليــة .. لــيس اسمًا معقدًا مثل (أريانا) مثلاً .. »

أفهــم كــلامه .. طريقــة فبركــة الأسـماء هــذه عنــدما لا تتكلم عن شخص بعينه .. الإسرائيلى حاييم والمكسيكى بابلو والفرنسى جــان والألمــانى هانز والعــربى كــريم أو عظيــم أو قاسم ..

كنت على وشــك ضربه كالعــادة ، ثم وجدت أننى سببت مــا يكفى من مشاكل .. وفى النهــاية لن يفعــل شــيئًا ولن يقــول شيئًا .. سوف يتكرر موقف ألبرت حرفيًا .. سوف أصير الأبلــه الوحيد ..

هكذا فارقته وأنا أسب وألعن بالعربية ..

على كل حال لدى ما يكفى من مشاكل دون هذه الباولا ..

★ ★ ★

قالت باولا :



ـــ « سوف أمنحك النسيان .. **فقط اغمض عينيك ودع الـــشمس الأرجوانية تتسرب إلى خلاياك .. لا تحاول أن تفهم كيف تغـــدو الأمـــور أمـــورًا .. من حاولوا الفهم عجزوا عن النسيان وعن** الفهم .. »

لم تمنحنى النسيان ولا الفهم ولا لحظات مرح ..

كانت الشمس الأرجوانية باهظة الثمن جدًا ....

ـ10ـ

فى مصر لم يعرف الناس الشمس الأرجوانية ..

لم يعرفها الناس فى أى مكان بالعالم .. إنها سر الأسرار .. فقط باولا علمتها لى ..

هناك فى ذلك الكهف البعيد تسلقت الحجارة الحادة ، وسال الدم من باطن قدمى ، ثم جثوت على ركبتى وزحفت إلى الداخل وسط المشاعل والنيران ..

كانت باولا تقف هناك .. قبيحة نحيلة لأنها لا تأكل سوى لحم الوطاويط .. إنها الكاهنة العظمى ..

تلبس حذاء غليظًا لأنها تدوس أجساد الرضع الغضة النابتة من الأرض ...

تفاحة آدم العملاقة تشى بأنها التهمت أكثر من كوكب قبل اليوم ... بعض الكواكب لا ينزل إلى المعدة ويبقى هناك ..

كنت أحمل الماضى والحاضر ووعودًا بالمستقبل ..

كنت أحمل أحلامى وقصة حب المراهقة وقصيدة أولى ورائحة النبق بعد المدرسة ، وبلل المطر فى نوفمبر عندما كانت الرائحة الندية تتصاعد من حجارة الطريق ..

هناك كانت الأحزان ترقص .. كانت المخاوف ترقص ..

وباولا تأخذ القرابين منى ، وتتفحصها بعناية وتقول :

ـ « لا بأس .. لكنك لم تجلب لى ملمس كف حبيبتك ولا عبق أنفاسها .. لم تجلب لى مذاق أول قطرة عسل تتفتح فى دمك .. لم تجلب لى أحلام الطفولة .. »

الميزان العملاق تزن به باولا ما جئت به ، ثم تضع الـــشمس الأرجوانية فى الكف الأخرى ..

أنت تستحق .. أنت تستحق الشمس الأرجوانية برغم كل شىء ..

نم .. نم وافتح أحشاءك ورئتيك ..

أشق بطنى لتتواثب أحشائى فى الهواء .. ماكفلاى هنا .. إنه جراح ولسوف يجعل الأمور أسهل . أحشائى تتلوى كالسكيلا فى (الأوديسة) .. وحش له عشرات الأرجل يفـــتش عـــن شـــىء يقتنصه ..

. الشمس الأرجوانية تتوهج .. تتألق ...

تحرق كل الذكريات الأليمة وكل القلق وكل المخاوف ....

إنها تعمى العيون ...

ماكفلاى نفسه يحترق وهو يصرخ ..

تقول لى باولا :

ـ « هلم ... تذكر أن الشمس الأرجوانية لا وجود لها .. أنا لا وجود لى .. نحن سر الأسرار .. لا تسأل عنا ثانية.."

لأنه هناك فى فجر التاريخ ، جلست الجبال فى وضع الاحتباء ، وراحت تدق النسيان .. تدقه بلا توقف لتحيله مسحوقًا ناعمًا ... كومة عالية من النسيان راحت ترتفع وترتفع ...

جاءت النسور تحلق ، فرفرفت بأجنحتها وولدت العواصف .. العواصف بعثرت مسحوق النسيان فى كل صوب .. نسيت الجبال أنها حية وأنها قادرة على الحركة ، ونسى البشر أنهم تعساء. فقط لم يبلغ المسحوق الكهوف .. وأنا كنت فى كهف من الكهوف فلم أنشق المسحوق .. لم أنس .. لهذا أنا تعس .. لهذا أنا أتألم ..

وبدأت أعوى فى حزن .. الدمع يسيل على خدى بلا توقف كأنه شلال ، والشلال سوف يغمر الوديان ويغرق الكلأ والغابات ... الوعول ستموت غرقًا ...

أعطينى المزيد حتى لا تموت الوعول ....

* * *

كانت الشمس الأرجوانية تتدفق فى دمى ..

هناك خلجان تقف عليها الذكريات ، وهذه الخلجان غرقت .. ارتفع المد مع الطمى الأحمر .. راح الناس يصرخون فى ذكرياتى ، بينما المد يحملهم مع الشمس الأرجوانية ..

الشمس الأرجوانية دخلت إلى قلبى ..

كان صغير الحجم دقيقًا لكنها راحت تنكمش أكثر فأكثر .. راحت تدور حول قلبى إلى أن وجدت بوابة مناسبة .. الوريد الأجوف السفلى .. انصبت فى البطين الأيمن وظلت هناك ... لم تذهب لأى موضع آخر برغم أننى أقنعتها كثيرًا .. غرست أعلامها وراحت تتوهج بألف لون ..

إن قلبى لا يحتمل هذا كله ..

قلبى يوشك على الانفجار ..

قلبى لا يخفق ..

-11-

كنت أمشى فى الوحدة شارد الذهن ..

هنا شعرت بيد توضع على كتفى . استدرت مهمومًا للخلف فرأيت د. جونستون .. نظر لى وابتسم وقال :

ــ « لا بأس بمظهرك .. تبدو لى قد كسبت بعض الوزن ، وشذبت لحيتك ... فارق كبير عن المرة الأخيرة.."

قلت فى سخرية مريرة :

ــ « الإقلاع عن العقاقير مفيد للصحة فعلاً .. »

قال فى غموض :

ــ « الشمس الأرجوانية .. هذا هو اسم العقار طبعا .. قال لى ماكفلاى إنك تفتش فى كل مكان وتسأل عنه.. لا يوجد عقار بهذا الاسم على قدر علمي"

قلت له وقد رأيت ألا أدارى شيئًا :

ــ « فى تقديرى أنه عقار جديد تمامًا ذو فعالية هائلة ، وقد جربته علىّ تلك الفتاة .. »

ــ « الفتاة التى يؤكد ماكفلاى أنه لا وجود لها .. »

ــ « أوميرتا Omertà.. كما يقول رجال المافيا ... مـؤامرة الصمت .. لقد قرر الجميع أن يلوذوا بالصمت وألا يخبرونى بشىء لكنى واثق فى حواسى .. على الأقل حتى لحظة لقائى معها .. »

ــ « هل تتهم ماكفلاى بالاشتراك فى هذه المؤامرة ؟ »

ــ « لا أتهم أحدًا بشىء .. سوف أخرس تمامًا .. »

قال وهو يتأبط ذراعى :

ــ « هذا جميل .. لقد كنت اليوم فى المختبر وقابلت د. هيلجا .. هى لا تحمل نحوك ضغينة ما .. لربما قررت كذلك أن تتنازل عن شكواها .. تقول إن ظروفك صعبة أساسًا .. »

قلت فى غيظ :

ــ « لماذا ؟.. هل رأيتنى أتسول ثمن كأس من الخمر مثلاً ؟ »

ــ « لا .. لكنها تتكلم عن علاج الإيدز الوقائى الذى ستأخذه ..! »

نظرت له فى ذعر وتراجعت خطوات كأن هناك من كان يمسك بخناقى ..

قال على الفور وهو يمد يده نحوى مهدئًا :

ـ « تحليل دمك موجب لفيروس HIV .. إن الأنبوب الـذى هشمته بيدك كان ملوثًا بالفيروس ، وأنت قلت إنك متأكد من أنه كان نظيفًا .. »

ـ « هذا ما قالته هيلجا .. »

ـ « هى لم تقل .. يمكن أن تضيف هـذا لفـاتورة الـشمس الأرجوانية. عل كل حال الأمر هين .. سوف تأخذ كورسًا قصيرًا من علاج الإيدز حسب البروتوكول. د. آرثر شيلبى سوف يحدد لك كيف تأخذ العلاج .. »

كأن الأمر ينقصه هذا !

بدأت أتوتر وأمشى فى مكان ضيق جيئة وذهابًـا ... نفـس أسلوب النمر الحبيس القديم .. أنا عصبى فعلاً لكـن لا أعـرف كيف أتوقف ..

دمى ملوث ...

لم تعد الشمس الأرجوانية هناك ولكن فيروس قذر .. فيروس يشبه الشمس إلى حد ما .. فيروس أطار النوم من عيون البشر ،

وهو الآن يمرح فى خلاياى .. هيلجا سامحتنى لأننى فى كارثـة .. هيلجا سامحتنى لأننى لحم ميت ...

من الغريب أن هذا لم ينجم عن التعاطى .. نجم عن عـصبية الانسحاب !

هذه الأمور الغريبة لا تحدث إلا معى ..

فارقته ورحت أركض بلا كلمة واحدة عبر طرقات الوحـدة .. خرجت إلى الحديقة حيث السيارات تنتظر وحيـث كـان المطـر الأفريقى ينهمر بغزارة .. دافئًا حارًا ...

رفعت وجهى للسماء وصحت :

ـ « رباه !.. فلينته هذا الكابوس ! »

آرثر شيلبى كان هناك ينظر لى فى دهشة .. ينظر لـى فـى شفقة ..

ارتميت بين ذراعيه .. وهـذا تبسط لا يفهمه الغربيون لـذا تراجع للخلف خطوتين وقال :

ـ « هلا هدأت أيها الشاب ؟.. لقد قالوا لى عن حالتك .. حظ سيئ لكنها ليست نهاية العالم بالتأكيد .. سوف نذهب إلى مكتبى ونناقش خطة الوقاية الدوائية .. »

كنت أبكى لكن المطر ساعد على أن تختلط قطراته بالـدموع مثل تلك الأغنية القديمة لدميس روسوس.. فى المطر يمكنك أن تبكى .. لكنك تتظاهر بأن هذه قطرات مطر ...

كان يحسبنى أبكى بسبب خوفى من الإيدز .. لا طبعًا ..

كنت أبكى لأن جهازى العصبى بلغ نهايته ... سوف يتصاعد الدخان الأزرق بعد قليل .. سوف يشم الناس رائحة الشياط ....

قال لى وهو ينظر للسماء :

ـ « سوف يصل المحقق الآن وربما الكهرباء .. أقتـرح أن نبتعد .. »

لم أفهم ما يقول ....

لكن الشىء حدث فعلاً ..



من بين الغيوم والأمطار المنهمــرة رأيــت تلــك الماســورة المعدنية العملاقة تهبط .. سفينة فضاء هائلة الحجــم اختــارت حديقة سافارى للنزول ..

جرى شيلبى خوفاً ..

لكنى سقطت على الأرض الزلقة ..

استدرت لأنهض وألحق به ، لكنى أدركت أن هذه الماســورة الهائلة تتجه مباشرة إلى قلبى ..!

-12-

تم الارتطام ...

اخترق الشىء قلبى .....

وانتفضت .. حاولت النهوض ...

وسمعت من يقول لى :

ـ « هلم ! »

ثم شعرت بشىء يوضع على أنفى ... عاصفة من بحر الشمال تهب على حدود أنفى وتحاول أن تتسرب داخلى . آخذ العاصفة كلها .. أحتويها داخلى ...

أرتجف بلا توقف ..

إن عاصفة شمالية فى صدرى .. إنها تحمل الكثير من الثلوج والرنة والرنجة و.... انقذونى ..

ـ « استنشق بقوة .. »

ـ « إنه يتنفس ! »



-13-

فى الضوء الخافت أرى الوجوه ..

ليس الظلام دامسًا .. الشمس الأرجوانية تلقى بضوئها المخيف الموجس على كل هذه الوجوه . فتشعر أنها نهاية العالم .. إنها النذير ...

أول الوجوه هو وجه (ماكفلاى) المحتقن ، ومن الواضح أنه يقوم بكل شىء ..

أقول له والعرق يتكاثف على جبينى :

- « الإيدز .. سفينة الفضاء العملاقة صارت ملوثة بفيروس الإيدز .. »

ثم أرى وجه (مولانجا) ورأسه الأصلع بما عليه من شعر أزرق مجعد ، فأقول :

- « وهذا أيضًا .. هذا الوغد ملوث بالايدز ... أنتم فى بيئة غير صحية يا سادة .. »

أنا راقد .. صدرى عار .. يعلو ويهبط .. التنفس صعب .. لا أستطيع التنفس وسط هذه الوجوه الكثيرة.. كلما جذبت الهواء

لصدرى انحشر رأس أو رأسان فى طاقتى أنفى وفى الشعب الهوائية ... النتيجة أن الهواء لا يصل .. أسعل فتتطاير الوجوه فى فضاء الحجرة ...

أحاول النهوض لكن ماكفلاى يقول لى وهو يرغمنى على الرقاد :

ــ « لا تنهض ... »

فى يده محقن ..

هناك بين الوجوه أرى الوجه العظمى منكوش الشعر .. باولا !.. إنها هنا .. تشع كشمس أرجوانية نحيلة فى الغرفة المظلمة .. لو أن الشمس نحيلة لها شعر منكوش وأسنان بارزة وتلبس حذاء غليظًا لكانت هذه ..

قلت لها :

ــ « بعد هذا كله سيزعمون أنه لا وجود لك .. إننى لأسائل نفسى .. ماذا يجب على المرء عمله ليثبت أنه موجود وأن الآخرين موجودون ؟ »

لم تتكلم .. كانت فى حال هى مزيج مـن الرعـب والتظـاهر باللامبالاة والندم والضيق ... لابد أن حذاءها العمـلاق يـضايق قدميها ..

كانت أسطوانة أكسجين بجوارى .. ألا تخشون من أن تنفجر وهى جوار كل هذا الوهج ؟.. وهناك مسعف أفريقـى .. بينمـا (مولانجا) يقول للوجوه التى تكاثرت على الباب :

ــ « عودوا لمرحكم .. لقد انتهى العرض .. لا توجد مشاكل .. »

فتاة قصيرة بدينة ظلت جوار الباب تنظر لـى فـى فـضول ، فدفعها فى غلظة قائلاً :

ــ « لم يمت للأسف .. العرض المثير الذى جئت لتريـه لـم يحدث .. هيا ! »

كنت أشير له بإصبع الاتهام وأكرر :

ــ « أنت وغد .. »

قال وهو يضرب رأسه الأصلع :

ــ « هذه هى النتيجة دومًا .. أنا وغد .. الوغــد الوحيــد .. ولسوف تصير الحياة أفضل لو تم حرقى فى فرن .. »

ماكفلاى يصغى لقلبى بالمسماع للحظات ، ثم يقول للمسعف :

ــ « لن يحتاج إلى حقنة ادرينالين أخرى ... »

صحت فى دهشة :

ــ « أدرينالين ؟ ... ادرينالين ؟ »

قال وهو يعيد قناع الأكسجين إلى أنفى :

ــ « نعم .. لقد اضطررنا لحقن الأدرينالين فى قلبك مباشــرة .. لقد توقف قلبك لثوان ..! »



-14-

أنا الآن فى فراش بوحدة العناية الفائقة فى سافارى ..

لولا ماكفلاى لقضيت نحبى فى تلك الليلة السوداء وفى تلـك الغرفة القذرة..

أين باولا ..؟.. لقد انسحبت على الفور .. لم تغادر غرفتهـا التى تقيم بها فى الطابق العلوى من ملهى (مولانجا) منذ شهر ..

وعرفت الكثير من التفاصيل ..

جـاءت برنادت لتـرانى وهى ترتجف .. الدمـوع تسبقها .. أمسكت بيدى ولثمتها فرحت أعبث بخصلات شعرها .. برغم كل شىء ستحزن كثيرًا لو أننى مت ..

لم يكن هناك فقدان وزن .. لم يكن هناك كـلام معهـا .. لـم نذهب إلى مولانجا .. لم أجرح يدى .. لم أطارد هيلجا بـأنبوب اختبار ...

لم يكن هناك شىء ....

* * *

باولا كانت صحفية ورسامة وأديبة .. اختارت أن تظل هنا إلى الأبد ، لكنها تقيم فى العاصمة (ياوندى) . منذ أعوام لم تـأت إلى هذه الحانة البائسة ...

جميلة ؟.. لا .. نحيلة جدًا ولها شعر منكوش مجنون يتطاير فى كل اتجاه ، ولها وجه عظمى فيه لمسة رجولية. قليـل مـن الرجال من ينجذب لقلم رصاص كهـذا .. لهـا أسـنان حـادة مشرشرة وحنجرة بارزة على شكل تفاحة آدم ..

بالإضافة لهذا كانت تجمع بين المخدرات وشىء من الخبال .. كانت تعتقد أنها ابتكرت مخدرًا جديدًا عبقريًا اسـمه (الـشمس الأرجوانية) وكانت تتعاطاه كثيـرًا ، وارادت أن تهديـه لعـالم الإدمان ..

كانت تبحث عن رجل تعتقد أنه يصلح .. وكنت أنا هذا الرجل ..

لابد أنها دست شيئًا فيما أشربه .. هذا هو الاحتمال الوحيد ، فلم أكن أسمح لمخلوق بأن يحقن سائلاً مجهولاً فى دمى ..

عندما انفردت بى فى تلك الغرفة عند مولانجا ، ملأت المحقن بالشمس الأرجوانية وأفرغته فى عروقى ..

لم تكن الشمس الأرجوانية ســوى مــزيج مــن الكوكــايين والهيروبين مع بعض الديازيبام والكورامين ، وكان تقــديرها أن الكوكايين منشط بينما الهيروبين مهدئ وبالتالى يزيل كــل مــن العقارين الآثار الخطرة للآخر ..

لم تكن غبية .. كانت تعرف أن هذا الخليط (كوكايين ــ هيروبين) فى محقن واحــد هــو خليط (سبيد بول) أو (كرة السرعة) المعروف ، وهو تركيب خطر جدًا .. لقد قتل مشاهير كثيرين ؛ منهم الممثل الكوميدى جون بيلوشى والممثل الشاب (ريفر فينكس) الذى مات على بعد خطوات مــن أخيــه (واكــين فيــنكس) . المشكلة فى هذا الخليط أن مفعول الكوكايين أقصر .. مــن ثــم يزول فلا يبقى إلا تأثير الهيروبين اللعين المهبط للجهاز التنفسى . لهذا أضافت الكورامين لتنشط الجهاز التنفسى .

صبت هذا الخليط فى دمى بمحقن ...

ما حدث هو أننى لم أنتش ..

لقد شخصت عيناى وشحب لونى ..

وعندما تحسست نبضى أدركت أن قلبى قد توقف ..

صرخت تنادى ماكفلاى الذى كان نصف ثمل ، فركض ليجدنى جثة شاخصة العينين على الفراش .. ومن مكان ما ظهر مولانجا يردد كلمات مثل :

ـ « حتخربوا بيوتنا الله يخرب بيوتكم .. قلت لك بلاش زفت .. »

يمكنك أن تتخيل ما قيل على كل حال ..

طلب ماكفلاى الإسعاف حالاً ، ثم ركض خارجًا من الملهى / الحانة / المقهى .. فصاح مولانجا غاضبًا :

ـ « الكل يفر لحظة الخطر .. أنا الأبله الوحيد الذى سيظل هنا ليواجه التبعات .. »

لكن ماكفلاى لم يكن قد فر .. لقد تذكر أن معه فى حقيبته بالسيارة عقاقير طبية. عاد مسرعًا وملأ محقنًا بالادرينالين وأفرغه فى قلبى ...

بعض لكمات للصدر ويبدأ القلب يعمل من جديد ..

ثم جاءت الإسعاف ومعها الأكسجين ...

* * *



ما حدث فى تلك اللحظات كان رحلة طويلة غريبة ..

لقد تكفل العقار العجيب مع نقص الدم الوارد للمخ بتأليف قصة كاملة ، ألاحق فيها باولا وأضرب الناس وأحاول استنتاج ما تعاطيته ...

لقد جربت ذات مرة شعور حالة الإغماء القصيرة ، وقد غبت عن الوعى لثوان .. فى هذه الثوانى عشت حياة كاملة وتزوجت حبيبة صباى وهاجرت إلى الصين (لا أعرف لماذا الصين) ، وعندما أفقت لأجد أننى فى ذات المكان أصابنى الذهول .. لقد استغرق حلمى عشرين عامًا على الأقل ..

اليوم جربت الموت ..

كنت أموت وأحلم فى الوقت ذاته ..

كنت أقوم بكل شىء يمكن أن أقوم به لو كنت يقظًا .. والشىء المثير للريبة هو افتراض ان هناك مخدرًا يؤدى عمل كل أنواع المخدرات فى وقت واحد..

الشمس الأرجوانية جعلتنى أحلم. لكن الحلم كان كابوسًا ، وكان الموت يقف على بعد خطوات ينتظرنى فى لهفة ....

-15-

قالت باولا :

- « سوف أمنحك النسيان .. فقط أغمض عينيك ودع الشمس الأرجوانية تتسرب إلى خلاياك .. لا تحاول أن تفهم كيف تغدو الأمور أمورًا .. من حاولوا الفهم عجزوا عن النسيان وعن الفهم .. »

* * *

فى التاسعة صباحًا دخلت إلى مكتب بارتلييه كى أتلقى العقاب عن الخطأ الذى ارتكبته فى العناية الفائقة ..

المشكلة هى أننى أعتبر أن هذا اللقاء قد تم فعلاً . مما يسبب لى الكثير من الارتباك . تذكرت فرويد فى (تفسير الأحلام) عندما حكى أنه كان - وهو طبيب مقيم صغير السن - مكلفًا بالمرور على العنابر فى صباح باكر بارد. غاب فى النوم ولم يصح .. لكنه فى نومه قام بمرور مدقق وفحص المرضى واحدًا واحدًا وكتب فى التذاكر كلها . عندما استيقظ متأخرًا عن موعده كان من المستحيل عليه أن يصدق أنه لم يقم بالمرور فعلاً . ولولا أنه لم يجد كتابته فى التذاكر لما صدق

السماء غريبة اليوم .. إنها خضراء تمامًا ...

شعرت بتوتر .. هل أنا فى الهلوسة إذن ؟.. أم لعل الهلوسة السابقة كانت هى الحقيقة ؟

مرت بى ممرضة فرنسية تعرفنى رأت أننى أنظر للسماء بدهشة فقالت دون أن تنظر لى :

ــ « غريب فعلاً.. يبدو أنه التلوث ! »

هكذا هدأت قليلاً .. على الأقل هى ترى ما أراه ...

قبل أن أدخل تأملت وجهى بعناية فى المرآة الموجودة بالحمام الملحق . لا يوجد شيطان يتمسك بخصلات شعرى هذه المرة ..

لم تكن فى المكتب أونوابا ولم تكن المقاعد ترقص ...

فقط قال بارتلييه فى مودة :

ــ « مرحبًا يا علاء .. أرجو أن تجلس .. لقد وصلنا إلى قرار بصددك .. »

ثم أردف :

ــ « لقد قررنا ألا نفعل أى شىء على الإطلاق .. أنت عنصر نشط أمين هنا ، ونحن لا نريد أن نعاقبك ... لكن لنعتبر هذه سابقة خطرة .. »

ـ « ألن توجه لى اللوم ؟ »

ـ « على الخطأ المهنى ؟.. نحن نفعل ذلك فعلاً .. »

قال باركر فى شىء من الهدوء :

ـ « يمكنك العودة للعمل من الآن ... »

شكرتهم ونهضت ولحسن الحظ لم يكن هناك سيرك به راقصون وأفيال فى الخارج ..

ما أثمن الواقع !... قاس ربما .. سخيف ربما .. ممل ربما ... لكن الحاجة إلى أن تصدق ما تراه عيناك وما تسمعه أذناك لا تقيمَ بثمن ..

★ ★ ★

يمكن للمرء أن يحيا دون شمس أرجوانية ..

سنة الحياة تقول إن علينا أن نستمد العزاء من أنفسنا .. لا من شمس أرجوانية ...

★ ★ ★



وفى شقة فى (ياوندي) كانت (باولا) تطالع كتابًا شعريًا ..

ترى هل يبحث رجال الشرطة عنها ؟.. هل قدم ضــدها ذلــك المصرى شكوى رسمية ؟.. هل يتهمونها بالاتجار فى المخدرات ؟.. لا مشكلة .. هى تعيش وسط الاتهامات ، لكن لربما كان عليهــا أن تتصل بالسفارة الإيطالية .. لربما كان عليها أن ترتب الأمور لمغادرة الكاميرون كلها ...

لكن ما مشكلة هذه الجرعة ؟.. ولماذا تتحملها هى بينما كــاد ثلاثة رجال يموتون عندما جربوا الشمس الأرجوانية ؟

راحت تتأمل المحقن المليء بالسائل ..

قالت لنفسها بصوت ناعم :

ــ « سوف أمنحك النسيان يا فتاة .. فقط أغمــضى عينيــك ودعى الشمس الأرجوانية تتسرب إلى خلاياك .. لا تحاولى فهم كيف تغدو الأمور أمورًا .. من حاولوا الفهم عجزوا عن النسيان وعن الفهم .. »

دنت من المرآة وطبعت قبلة نهمة علــى انعكــاس شــفتيها الباردتين ..

ثم بحثت عن الوريد الوحيد الذى ما زال صالحًا فى ساعدها الأيسر .. وغرست الإبرة .. ولنفسها همست :

ـ « رحلة سعيدة أيتها الحسناء .. »

وراحت تفاحة آدم تصعد وتهبط كأنها مضخة فى بئر بترول فى صحراء خليجية ...

أما ما حدث بعد ذلك فأمر يؤسفنى أنه بعيد جدًا عن نطاق عملنا فى سافارى .

د. علاء عبد العظيم

أنجاوانديرى



مسابقة العدد الخاص لسافارى

PCR

ما إن صدر العدد الخاص من سافارى ، حتى انهمرت علـى إجابات الأصدقاء وكلها صحيحة تقريبًا . إما أن ثقافتهم واسـعة جدًا وإما أن الألغاز كانت أسهل من اللازم .. على كل حال كنـت قد عرضت جـزءًا من الكتيب قبل نشره على صديقتى العزيـزة المختصة بعلم الوراثة (دعاء حسين) ، فكان رأيها أن الألغـاز صعبة وأنه من الأفضل وضع فقرة للتلميح ، وقد اقتنعت برأيهـا .. فهل جاء التلميح أوضح من اللازم ؟.. ربما . على كل حال ليس الهدف هو تعذيب القراء ولكن الاستمتاع ، فإن كنا قد حققناه فقد نجحنا . دعاء وصلنى ردها ليكون الخامس؛ لكنها طلبت بوضوح ألا أعتبرها ضمن المتسابقين لأنها رأت الكتيب قبل نشره .

العنوان البريدى طبعًا هو :

metilegln@yahoo.com

ويتكون من تتابع القواعد :

AUG = Methionine (Met)

AUC= Isoleucine (ILE)

CAA = Glutamine (Gln)

برنادت تشكر كل من شارك فى المسابقة على إنقاذ حياتها من الوباء النزفى الخبيث.

الفائزون العشرون الذين كانوا أول من أرسل هم بطبيعة الحال مصريون فقط (وهذه مشكلة يجب أن نراعيها فى الكتيبات القادمة) . نقطة أخرى هى أن بعض الأوائل فازوا من قبل فى مسابقة مماثلة فى سلسلة فانتازيا .

1 ـ الصديق حسام دياب (أرسل الحل أخوه خالد دياب).

2 ـ الصديق أنس إبراهيم من منتدى روايات.

3 ـ الصديق محمد أبو الغيط (مواطن مصرى كما يطلق على نفسه) .

4 ــ الصديق كمال الحسينى .

5 ــ الصديق د. كريم الليثى ، وهو مندوب أدوية بيطرية فى السابعة والعشرين من عمره .

6 ــ الصديقة ريم حسن أو هبة أو مروة .. المهم أنها (ريم البرارى) فى منتدى روايات .

7 ــ الصديق أحمد السيد أبو رحال .

8 ــ الصديق محمد أحمد .

9 ــ الصديقة نشوى نبيل .

10ــ الصديقة هلا كمال محمد .

11ــ الصديقة هدى على .

12ــ الصديق أحمد محمد كرم محمد ــ روكسى مــن مــصر الجديدة والوحيد الذى كتب عنوانه !

13ــ الصديق أحمد السحار .

14ــ الصديقة هبة ظريف ــ 29 سنة .

15ــ الصديق عمر سعد الله (زاجالو) .

16ـ الصديق مهندس أحمد مجدى عبد العليم .

17ـ الصديقة علا عادل .

18ـ الصديق مهندس . أحمد أسامة سنبل من بورسعيد .

19ـ الصديقة سلمى الديب .

20ـ الصديقة مهندسة هبة عبد اللطيف .

هؤلاء هم الفائزون .. لكنى أعتبر كل من أرسل لى فـائزًا . سوف نرتب لقاء إن شاء الله عن طريـق مراسـلة عنـاوينهم البريدية التى أرسلوا منها ، مع جائزة أقل من سيارة رياضـية وأغلى من (شكرًا جزيلاً) .

أكرر شكرى وتقديرى وإلى لقاء ..

د. علاء عبد العظيم





روايات مصرية للجيب
سافاري
الشمس الأرجوانية
د. أحمد خالد توفيق
قالت باولا :
- « سوف أمنحك النسيان .. فقط أغمض عينيك
ودع الشمس الأرجوانية تتسرب الى خلاياك ..
لا تحاول أن تفهم كيف تغدو الأمور أمورا ..
من حاولوا الفهم عجزوا عن النسيان .. وعن الفهم » ..
وكان ثمن النسيان قاسيا جدًا . لا يقدر على
دفعه إلا قليلون .
العدد القادم
المرض السابع
المؤسسة العربية الحديثة
الثمن في مصر 300